نصف الحزب ١٩

تفسير سورة التوبة وهي مدنية

﴿۞ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما قال البخارى: (١) حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة عن أبى إسحاق قال: سمعت البراء يقول آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] وآخر سورة نزلت براءة، وإنما لا يبسمل فى أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة فى أولها فى المصحف الإمام، بل اقتدوا فى ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وأرضاه، كما قال الترمذى: (٢) حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد ومحمد بن جعفر وابن أبى عدى وسهل بن يوسف قالوا: حدثنا عوف بن أبى جميلة، أخبرنى يزيد الفارسى، أخبرنى ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى وإلى براءة وهى من المئين وقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطول ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول: «ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا»، فإذا نزلت عليه الآية فيقول: «ضعوا هذه الآية في المكان الذي يذكر فيها كذا وكذا». وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها وحسبت أنها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطوال، وكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه، والحاكم فى مستدركه (٣) من طرق أخر عن عوف الأعرابى به.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم فى ذلك وأنهم يطوفون بالبيت عراة، فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق رضى الله عنه أميرًا على الحج هذه السنة ليقيم للناس مناسكهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادى فى الناس ببراءة فلما قفل أتبعه بعلى بن أبى طالب ليكون مبلغًا عن رسول الله ﷺ لكونه عصبة له كما سيأتى بيانه.

فقوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أى هذه براءة أى تبرؤ من الله ورسوله ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ اختلف المفسرون ههنا اختلافًا كثيرًا، فقال قائلون: هذه الآية

(١) البخاري (٤٦٥٤).
(٢) ضعيف: الترمذي (٣٠٨٦). انظر ضعيف سنن الترمذي (٥٩٩).
(٣) ضعيف: المسند (٤٠١)، أبو داود (٧٨٦)، النسائي في الكبرى (٥/ ١٠) برقم (٨٠٠٧)، ابن حبان (١/ ٢٣٠)، برقم (٤٣)، الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٤١، ٣٦٠)، برقم (٢٨٧٥)، (٣٢٧٢). انظر تعليق الشيخ أحمد شاكر على المسند.

لذوى العهود المطلقة غير المؤقتة أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان، لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، ولما سيأتى فى الحديث. ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله، وروى عن الكلبى ومحمد بن كعب القرظى وغير واحد. وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ الآية، قال: حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون فى الأرض حيثما شاءوا وأجلّ أجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى انسلاخ المحرم فذلك خمسون ليلة، وقال الضحاك: فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد بقتلهم حتى يدخلوا فى الإسلام، وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضًا حتى يدخلوا فى الإسلام.

وقال أبو معشر المدنى: حدثنا محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميرًا على الموسم سنة تسع، وبعث على بن أبى طالب بثلاثين آية أو أربعين آية من براءة فقرأها على الناس، يؤجل المشركين أربعة أشهر يسيحون فى الأرض فقرأها عليهم يوم عرفة أجل المشركين عشرين من ذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشرًا من ربيع الآخر، وقرأها عليهم فى منازلهم وقال: لا يحجن بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان [(١)]. وقال ابن أبى نجيح، عن مجاهد ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ إلى أهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد أو غيرهم، أقبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ فأراد رسول الله ﷺ الحج ثم قال: «إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك» فأرسل أبا بكر وعليًا رضى الله عنهما فطافا بالناس فى ذى المجاز وبأمكنتهم التى كانوا يتبايعون بها وبالمواسم كلها، فآذنوا أصحاب العهد بأن يؤمّنوا أربعة أشهر فهى الأشهر المتواليات عشرون من ذى الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ثم لا عهد لهم، وآذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا، وهكذا روى عن السدى وقتادة، قال الزهرى: كان ابتداء التأجيل من شوال وآخره سلخ المحرم، وهذا القول غريب وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك ولهذا قال تعالى:

﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾

يقول تعالى: وإعلام ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ وتقدم وإنذار إلى الناس ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ وهو يوم النحر الذى هو أفضل أيام المناسك وأطهرها وأكثرها جمعًا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ أى برىء منهم أيضًا ثم دعاهم إلى التوبة إليه، فقال ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ أى مما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿فَهُوَ

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٦١).

خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أى استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فَاعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ بل هو قادر عليكم وأنتم فى قبضته وتحت قهره ومشيئته، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى فى الدنيا بالخزى والنكال وفى الآخرة بالمقامع والأغلال، قال البخارى رحمه الله [١] : حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث، حدثنى عقيل عن ابن شهاب قال: أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثنى أبو بكر رضى الله عنه فى تلك الحجة فى المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان.

قال حميد: ثم أردف النبى ﷺ بعلى بن أبى طالب فأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة فأذن معنا على فى أهل منى يوم النحر ببراءة، وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ورواه البخارى أيضًا: [٢] حدثنا أبو اليمان، أخبرناشعيب عن الزهرى، أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثنى أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى: لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر، فنبذ أبو بكر إلى الناس فى ذلك العام فلم يحج عام حجة الوداع الذى حج فيه رسول الله ﷺ مشرك، هذا لفظ البخارى فى كتاب الجهاد. وقال عبد الرزاق: عن معمر عن الزهرى عن ابن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه فى قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ١] قال: لما كان النبى ﷺ زمن حنين اعتمر من الجعرانة ثم أمّر أبا بكر على تلك الحجة، قال معمر: قال الزهرى: وكان أبو هريرة يحدث أن أبا بكر أمر أبا هريرة أن يؤذن ببراءة فى حجة أبى بكر، قال أبو هريرة: ثم أتبعنا النبى ﷺ عليًا وأمره أن يؤذن ببراءة وأبو بكر على الموسم كما هو أو قال: على هيئته. وهذا السياق فيه غرابة من جهة أن أمير الحج كان سنة عمرة الجعرانة إنما هو عتاب بن أسيد فأما أبو بكر إنما كان أميرًا سنة تسع.

وقال الإمام أحمد: [٣] حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن مغيرة عن الشعبى عن محرّر بن أبى هريرة عن أبيه قال: كنت مع على بن أبى طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال: ما كنتم تنادون؟. قال: كنا ننادى أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو مدته إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله برىء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك، قال: فكنت أنادى حتى صحل صوتى، وقال الشعبى: حدثنى محرز بن أبى هريرة عن أبيه قال: كنت مع على بن أبى طالب رضى الله عنه حين بعثه النبى ﷺ ينادى فكان إذا صحل ناديت فقلت: بأى شىء كنتم تنادون؟ قال بأربع، لا يطوف بالكعبة عريان، ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك. رواه ابن جرير [٤] من غير وجه عن الشعبى، ورواه شعبة عن مغيرة عن الشعبى به، إلا أنه قال: ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى أربعة أشهر وذكر تمام الحديث. قال ابن جرير: [٥] وأخشى أن يكون وهما من بعض نقلته لأن الأخبار متظاهرة فى الأجل بخلافه.

---

(١) البخاري برقم (٤٦٥٦).
(٢) البخاري (٣١٧٧).
(٣) ضعيف: المسند (٧٩١٧).
(٤) ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٦٣).
(٥) تفسير الطبري (١٠/ ٦٤).

وقال الإمام أحمد: [١] حدثنا عفان، حدثنا حماد عن سماك عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بعثه ببراءة مع أبى بكر فلما بلغ ذا الحليفة قال: «لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي» فبعث بها مع على بن أبى طالب رضى الله عنه، ورواه الترمذى فى التفسير: [٢] عن بندار عن عفان وعبد الصمد كلاهما عن حماد بن سلمة به، ثم قال: حسن غريب من حديث أنس رضى الله عنه، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: [٣] حدثنا محمد بن سليمان، - لُوَيْن - حدثنا محمد بن جابر عن سماك عن حنش عن على رضى الله عنه قال: لما نزلت عشر آيات من براءة على النبى ﷺ دعا النبى ﷺ أبا بكر فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة ثم دعانى فقال: «أدرك أبا بكر فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب إلى أهل مكة فاقرأه عليهم» فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه ورجع أبو بكر إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، نزل فيَّ شيء؟ فقال «لا، ولكن جبريل جاءنى فقال: لن يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك» هذا إسناد فيه ضعف، وليس المراد أن أبا بكر رضى الله عنه رجع من فوره بل بعد قضائه المناسك التى أمره عليها رسول الله ﷺ كما جاء مبينًا فى الرواية الأخرى. وقال عبد الله أيضًا: [٤] حدثنى أبو بكر، حدثنا عمرو بن حماد عن أسباط بن نصر عن سماك عن حنش عن على رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ حين بعثه ببراءة قال: يا نبى الله إنى لست باللسن ولا بالخطيب قال: «ما بد لى أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت» قال: فإن كان ولا بد فسأذهب أنا، قال: «انطلق فإن الله يثبت لسانك ويهدى قلبك» قال: ثم وضع يده على فيه.

وقال الإمام أحمد: [٥] حدثنا سفيان عن أبى إسحاق عن زيد بن يثيع رجل من همدان، سألنا عليًا بأى شيء بعثت؟ يعنى يوم بعثه النبى ﷺ مع أبى بكر فى الحجة، قال: بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبى ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا، ورواه الترمذى [٦] عن قلابة عن سفيان بن عيينة وقال: حسن صحيح كذا قال، ورواه شعبة عن أبى إسحاق فقال عن زيد بن أثيل وهم فيه، ورواه الثورى عن أبى إسحاق عن بعض أصحابه عن على رضى الله عنه.

وقال ابن جرير: [٧] حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة عن زكريا عن أبى إسحاق عن زيد بن يثيع عن على قال: بعثنى رسول الله ﷺ حين أنزلت براءة بأربع: أن لا يطوف بالبيت عريان، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ثم رواه ابن جرير [٨] عن محمد بن عبد الأعلى عن أبي ثور عن معمر عن أبى إسحاق عن الحارث عن على قال: أمرت بأربع... فذكره، وقال إسرائيل [٩] عن أبى إسحاق عن زيد بن يثيغ قال: نزلت براءة فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر ثم أرسل عليًا فأخذها منه، فلما رجع أبو بكر

---

(١) **حسن**: المسند (١٢٨٠٢).
(٢) **حسن**: الترمذي (٣٠٩٠).
(٣) زوائد المسند (١٢٩٩)، قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٩): فيه محمد بن جابر السحيمي، وهو ضعيف وقد وثق.
(٤) زوائد المسند (١٢٨٩).
(٥) **صحيح**: المسند (٥٩٥).
(٦) **صحيح**: الزوائد (٨٧١)، (٣٠٩٢).
(٧) تفسير ابن جرير الطبري (١٠/ ٦٤).
(٨) تفسير ابن جرير الطبري (١٠/ ٦٤).
(٩) تفسير ابن جرير الطبري (١٠/ ٦٤).

قال: نزل فى شىء؟ قال: «لا ولكن أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي» فانطلق إلى أهل مكة فقام فيهم بأربع . . . . لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته، وقال محمد بن إسحاق [١] عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن أبى جعفر محمد بن على بن الحسين بن على قال: لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ وقد كان بعث أبا بكر ليقيم الحج للناس فقيل يا رسول الله: لو بعثت إلى أبى بكر؟ فقال: «لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتي» ثم دعا عليًا فقال: «اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو له إلى مدته» فخرج على رضى الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر فى الطريق فلما رآه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟ فقال بل مأمور، ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب فأذن فى الناس بالذى أمره رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، ثم قدما على رسول الله ﷺ فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام وأهل المدة إلى الأجل المسمى.

وقال ابن جرير: [٢] حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا أبو زرعة وهب الله بن راشد، أخبرنا حيوة بن شريح، أخبرنا أبو صخر أنه سمع أبا معاوية البجلى من أهل الكوفة يقول: سمعت أبا الصهباء البكرى وهو يقول: سألت عليَّ بن أبي طالب عن يوم الحج الأكبر فقال: إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبى قحافة يقيم للناس الحج ويعثنى معه بأربعين آية من براءة حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة، فلما قضى خطبته التفت إلى فقال: قم يا على فأد رسالة رسول الله ﷺ، فقمت فقرأت عليهم أربعين آية من براءة، ثم صدرنا فأتينا منى فرميت الجمرة ونحرت البدنة ثم حلقت رأسى وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا حضروا كلهم خطبة أبى بكر يوم عرفة فطفت أتتبع بها الفساطيط أقرأها عليهم فمن ثم أخال حسبتم أنه يوم النحر ألا وهو يوم عرفة. وقال عبد الرزاق [٣] عن معمر عن أبى إسحاق سألت أبا جحيفة عن يوم الحج الأكبر قال: يوم عرفة، فقلت: أمن عندك أم من أصحاب محمد ﷺ؟ قال: كلٌّ فى ذلك، وقال عبد الرزاق [٤] أيضًا: عن ابن جريج عن عطاء قال: يوم الحج الأكبر يوم عرفة. وقال عمر بن الوليد الشَّنّى: حدثنا شهاب بن عباد العصرى عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: هذا يوم عرفة هذا يوم الحج الأكبر فلا يصومنه أحد.

قال: فحججت بعد أبى فأتيت المدينة فسألت عن أفضل أهلها فقالوا: سعيد بن المسيب فأتيته

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٦٥)، من طريق محمد بن إسحاق.
(٢) تفسير ابن جرير الطبري (١٠/ ٦٧).
(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٦٨) من طريق عبد الرزاق به.
(٤) رواه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٦٨) من طريق عبد الرزاق به.

فقلت: إنى سألت عن أفضل أهل المدينة فقالوا: سعيد بن المسيب فأخبرنى عن صوم يوم عرفة، فقال: أخبرك عمن هو أفضل منى مائة ضعف عمر أو ابن عمر، كان ينهى عن صومه ويقول هو يوم الحج الأكبر، رواه ابن جرير [١] وابن أبى حاتم، وهكذا روى عن ابن عباس وعبد الله بن الزبير ومجاهد وعكرمة وطاوس أنهم قالوا: يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر.

وقد ورد فيه حديث مرسل رواه ابن جريج، أخبرت عن محمد بن قيس بن مخرمة أن رسول الله ﷺ خطب يوم عرفة فقال: «هذا يوم الحج الأكبر» [٢] وروى من وجه آخر: عن ابن جريج عن محمد بن قيس عن المسور بن مخرمة عن رسول الله ﷺ أنه خطبهم بعرفات فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإن هذا يوم الحج الأكبر».

والقول الثانى أنه يوم النحر قال هشيم عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى عن على رضى الله عنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر، وقال أبو إسحاق السبيعى عن الحارث الأعور: سألت عليًا رضى الله عنه عن يوم الحج الأكبر فقال: هو يوم النحر، وقال شعبة عن الحكم سمعت يحيى بن الجزار يحدث عن على رضى الله عنه أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبانة فجاء رجل فأخذ بلجام دابته فسأله عن يوم الحج الأكبر فقال هو يومك هذا خل سبيلها.

وقال عبد الرزاق: عن سفيان عن شعبة عن عبد الملك بن عمير عن عبد الله بن أبى أوفى أنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر، وروى شعبة وغيره عن عبد الملك بن عمير به نحوه. وهكذا رواه هشيم وغيره عن الشيبانى عن عبد الله بن أبى أوفى. وقال الأعمش عن عبد الله بن سنان قال: خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال: هذا يوم الأضحى وهذا يوم النحر وهذا يوم الحج الأكبر، وقال حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: الحج الأكبر يوم النحر، وكذا روى عن أبى جحيفة وسعيد بن جبير وعبد الله بن شداد بن الهاد ونافع بن جبير بن مطعم والشعبى وإبراهيم النخعى ومجاهد وعكرمة وأبى جعفر الباقر والزهرى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: يوم الحج الأكبر هو يوم النحر واختاره ابن جرير، وقد تقدم الحديث عن أبى هريرة فى صحيح البخارى أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى، وقد ورد فى ذلك أحاديث أخر كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: [٣] حدثنى سهل بن محمد السجستانى، حدثنا أبو جابر الحرمى، حدثنا هشام بن الغاز الجرشى عن نافع عن ابن عمر قال: وقف رسول الله ﷺ يوم النحر عند الجمرات فى حجة الوداع فقال: «هذا يوم الحج الأكبر» وهكذا رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه من حديث أبى جابر واسمه محمد بن عبد الملك به، ورواه ابن مردويه أيضًا من حديث الوليد بن مسلم عن هشام بن الغاز به، ثم رواه من حديث سعيد بن عبد العزيز عن نافع به، وقال شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة الهمدانى عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ على ناقة حمراء مخضرمة فقال: «أتدرون أى يوم يومكم هذا؟» قالوا: يوم النحر، قال: «صدقتم يوم الحج الأكبر» [٤].

---

(١) ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٦٨).

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/ ٦٨)، عن ابن جريج.

(٣) صحيح: ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٧٣). (٤) صحيح: تفسير الطبرى (١٠/ ٧٣).

وقال ابن جرير: [١] حدثنا أحمد بن المقدام، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا ابن عون عن محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه قال: لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله ﷺ على بعير له وأخذ الناس بخطامه أو زمامه، فقال: «أى يوم هذا؟» قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، فقال «أليس هذا يوم الحج الأكبر؟» وهذا إسناد صحيح وأصله مخرج فى الصحيح. [٢] وقال أبو الأحوص عن شبيب بن غرقدة عن سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ فى حجة الوداع فقال: «أى يوم هذا؟» فقالوا: يوم الحج الأكبر، وعن سعيد بن المسيب أنه قال: يوم الحج الأكبر اليوم الثانى من يوم النحر رواه ابن أبى حاتم، وقال مجاهد أيضًا: يوم الحج الأكبر أيام الحج كلها، وكذا قال أبو عبيد. قال سفيان: يوم الحج ويوم الجمل ويوم صفين أي: أيامه كلها، وقال سهل السراج: سئل الحسن البصرى عن يوم الحج الأكبر؟ فقال: ما لكم وللحج الأكبر؟ ذاك عام حج فيه أبو بكر الذى استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس رواه ابن أبى حاتم.

وقال ابن جرير: [٣] حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة عن ابن عون، سألت محمدًا يعنى ابن سيرين عن يوم الحج الأكبر، فقال: كان يوما وافق فيه حج رسول الله ﷺ وحج أهل الوبر.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤﴾

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله أربعة أشهر يسيح فى الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التى عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته، وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده ولم يظاهر على المسلمين أحدًا أى يمالىء عليهم من سواهم، فهذا الذى يوفى له بذمته وعهده إلى مدته ولهذا حرض تعالى على الوفاء بذلك، فقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أى الموفين بعهدهم.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

اختلف المفسرون فى المراد بالأشهر الحرم ههنا ما هي؟ فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة فى قوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٣٦]، قاله أبو جعفر الباقر، ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم فى حقهم المحرم، وهذا الذى ذهب إليه حكاه على بن أبى طلحة عن ابن عباس وإليه ذهب الضحاك أيضًا وفيه نظر، والذى يظهر من حيث السياق ما

---

(١) صحيح: الطبري (١٠/ ٧٣).

(٢) البخاري برقم (٦٧)، مسلم (١٦٧٩)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٣) ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٧٢).

ذهب إليه ابن عباس فى رواية العوفى عنه، وبه قال مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وقتادة والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢] ثم قال: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ أى إذا انقضت الأشهر الأربعة التى حرمنا عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر، ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتى بيان حكمها فى آية أخرى بعد فى هذه السورة الكريمة.

وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أى من الأرض وهذا عامٌّ، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال فى الحرم، بقوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أى وأسروهم إن شئتم قتلا وإن شئتم أسرًا، وقوله: ﴿وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أى لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار فى معاقلهم وحصونهم والرصد فى طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام، ولهذا قال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولهذا اعتمد الصديق رضى الله عنه فى قتال مانعى الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال وهى الدخول فى الإسلام والقيام بأداء واجباته، ونبه بأعلاها على أدناها فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التى هى حق الله عز وجل، وبعدها أداء الزكاة التى هى نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج وهى أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيرًا ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة. وقد جاء فى الصحيحين [١] عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة» الحديث، وقال أبو إسحاق: عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يزك فلا صلاة له، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال: يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه!

وقال الإمام أحمد: [٢] حدثنا على بن إسحاق، أنبأنا عبد الله بن المبارك، أنبأنا حميد الطويل عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم» ورواه البخارى فى صحيحه وأهل السنن [٣] إلا ابن ماجه، من حديث عبد الله بن المبارك به، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: [٤] حدثنا عبد الأعلى بن واصل الأسدى، حدثنا عبيد الله بن موسى أخبرنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده

---

(١) البخاري برقم (٢٥)، مسلم برقم (٢٢). (٢) صحيح: المسند (١٢٦٤٣).
(٣) البخاري برقم (٣٩٣)، أبو داود برقم (٢٦٤١)، الترمذي (٢٦٠٨)، النسائي برقم (٣٩٦٧).
(٤) ضعيف: الطبري (١٠/ ٧٨)، ابن ماجه (٧٠)، فيه: الربيع بن أنس، ضعيف. انظر: مصباح الزجاجة للبوصيرى (١/ ١٢).

وعبادته لا يشرك به شيئًا فارقها والله عنه راض» قال: وقال أنس: هو دين الله الذى جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك فى كتاب الله فى آخر ما أنزل، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ قال: توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم قال فى آية أخرى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١] ورواه ابن مردويه ورواه محمد بن نصر المروزى [١] فى كتاب الصلاة له. حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أنبأنا حكام بن سَلْم، حدثنا أبو جعفر الرازى به سواء، وهذه الآية الكريمة هى آية السيف التى قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبى ﷺ وبين أحد من المشركين وكل عهد وكل مدة، وقال العوفى: عن ابن عباس فى هذه الآية لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة، وانسلاخ الأشهر الحرم ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر، وقال على بن أبى طلحة: عن ابن عباس فى هذه الآية قال: أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا فى الإسلام، ونقض ما كان سمى لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأول.

وقال ابن أبى حاتم: [٢] حدثنا أبى حدثنا إسحاق بن موسى الأنصارى قال: قال سفيان بن عيينة: قال على بن أبى طالب: بعث النبى ﷺ بأربعة أسياف سيف فى المشركين من العرب، قال الله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ هكذا رواه مختصرًا، وأظن أن السيف الثانى هو قتال أهل الكتاب فى قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] والسيف الثالث قتال المنافقين فى قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الآية [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]، والرابع قتال الباغين فى قوله ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] ثم اختلف المفسرون فى آية السيف هذه فقال الضحاك والسدى هى منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤] وقال قتادة بالعكس.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ أى استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله أى القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئًا من أمر الدين تقيم عليه به حجة الله ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ أى وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أى إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله فى عباده.

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى تفسير هذه الآية قال: إنسان يأتيك يسمع ما تقول وما أنزل عليك فهو آمن حتى يأتيك فيسمع كلام الله وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء، ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطى

---

(١) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٨٦)، برقم (١). (٢) تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ٩٢٥٤).

الأمان لمن جاءه مسترشدًا أو فى رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو وغيرهم، واحدًا بعد واحد يترددون فى قضية بينه وبين المشركين فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم، ولهذا أيضًا لما قدم رسولُ مسيلمةَ الكذاب على رسول الله ﷺ قال له أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟ قال نعم، فقال رسول الله ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك» [1] وقد قيض الله له ضرب العنق فى إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له ابن النواحة ظهر عنه فى زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست فى رسالة وأمر به فضربت عنقه لا رحمه الله ولعنه.

والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام فى أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أمانًا أعطى أمانًا ما دام مترددًا فى دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه، لكن قال العلماء لا يجوز أن يمكن من الإقامة فى دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعى وغيره من العلماء رحمهم الله.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٧﴾

يبين تعالى حكمته فى البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ وأمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعنى يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ الآية [الفتح: ٢٥]، ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أى مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون. استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذى القعدة فى سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ومالئوا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوهم معهم فى الحرم أيضًا فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ فى رمضان سنة ثمان ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصيهم ولله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء، وكانوا قريبًا من ألفين، ومن استمر على كفره وفرّ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير فى الأرض أربعة أشهر يذهب حيث شاء، منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

---

(١) صحيح: أبو داود (٢٧٦١)، أحمد (١٥٥٥٩) بنحوه.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨﴾

يقول تعالى محرضًا للمؤمنين على معادة المشركين والتبرى منهم ومبينًا أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة. قال على بن أبى طلحة وعكرمة والعوفى عن ابن عباس: الإلّ القرابة والذمة العهد. وكذا قال الضحاك والسدى كما قال تميم بن مقبل:

أفسد الناسَ خلوفٌ خلفوا ... قطعوا الإلَّ وأعراق الرحمْ

وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه:

وجدناهم كاذبًا إلّهُمْ ... وذو الإل والعهد لا يكذبُ

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا﴾، قال: الله، وفى رواية لا يرقبون الله ولا غيره.

وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن علية عن سليمان عن أبى مجلز فى قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ مثل قوله جبريل ميكائيل إسرافيل كأنه يضيف «جبر» و«ميكا» و«إسراف» إلى «إيل» يقول عبد الله ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا﴾ كأنه يقول لا يرقبون الله، والقول الأول أشهر وأظهر وعليه الأكثر. وعن مجاهد أيضًا الإل العهد. وقال قتادة: الإل الحلف.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۝١٠ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١﴾

يقول تعالى ذمًّا للمشركين وحثًّا للمؤمنين على قتالهم ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعنى أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ أى منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ تقدم تفسيره وكذا الآية التى بعدها ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ إلى آخرها تقدمت.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: [1] حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يحيى بن أبى بكر، حدثنا أبو جعفر الرازى، حدثنا الربيع بن أنس قال: سمعت أنس بن مالك يقول قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته لا يشرك به، وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راضٍ» وهو دين الله الذى جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم، قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء وتصديق ذلك فى كتاب الله ﴿فَإِن تَابُوا﴾ يقول فإن خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وقال فى آية أخرى ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ ثم قال البزار: آخر الحديث عندى والله أعلم فارقها وهو عنه راضٍ وباقيه عندى من كلام الربيع بن أنس.

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾

يقول تعالى ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾ هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة ﴿أَيۡمَٰنَهُم﴾ أى عهودهم ومواثيقهم ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ أى عابوه وانتقصوه، ومن ههنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه أو من طعن فى دين الإسلام أو ذكره بتنقص، ولهذا قال: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ أى يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال. وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر. كأبى جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف وعدد رجالاً، وعن مصعب بن سعد بن أبى وقاص قال: مر سعد برجل من الخوارج فقال الخارجى: هذا من أئمة الكفر، فقال سعد كذبت بل أنا قاتلت أئمة الكفر، رواه ابن مردويه، وقال الأعمش عن زيد بن وهب عن حذيفة أنه قال ما قوتل أهل هذه الآية بعد.

وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه مثله، والصحيح أن الآية عامة وإن كان سبب نزولها مشركى قريش فهى عامة لهم ولغيرهم والله أعلم وقال: الوليد بن مسلم: حدثنا صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، أنه كان فى عهد أبى بكر رضى الله عنه إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال: إنكم ستجدون قوما مُحَوَّقَة رؤوسهم، فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيوف، فو الله لأن أقتل رجلا منهم أحب الى من أن أقتل سبعين من غيرهم وذلك بأن الله يقول: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ رواه ابن أبى حاتم.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾

وهذا أيضًا تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين لأيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقال تعالى: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ الآية [الممتحنة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَا وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ الآية [الإسراء: ٧٦]، وقوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ قيل المراد بذلك: يوم بدر حين خرجوا لنصر عيرهم، فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم، طلبًا للقتال بغيًا وتكبرًا كما تقدم بسط ذلك، وقيل المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بنى بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ يقول تعالى لا تخشوهم واخشون فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتى وعقوبتى فبيدى الأمر وما شئت كان ومالم أشأ لم يكن، ثم قال عزيمة على المؤمنين وبيانًا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من

عنده: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾: وهذا عام فى المؤمنين كلهم، وقال مجاهد وعكرمة والسدى فى هذه الآية ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ يعنى خزاعة، وأعاد الضمير فى قوله: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ عليهم أيضًا. وقد ذكر ابن عساكر فى ترجمة مؤذن لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه عن مسلم بن يسار عن عائشة رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان إذا غضبت أخذ بأنفها وقال «يا عويش قولى اللهم رب النبى محمد اغفر ذنبى، وأذهب غيظ قلبى وأجرنى من مضلات الفتن» ساقه من طريق أبى أحمد الحاكم، عن الباغندى عن هشام بن عمار حدثنا عبد الرحمن بن أبى الجون عنه ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أى من عباده ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى بما يصلح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فى أفعاله وأقواله الكونية والشرعية فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذى لا يجور أبدًا ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر، بل يجازى عليه فى الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين لا نختبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أى بطانة ودخيلة بل هم فى الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر كما قال الشاعر:

وما أدرى إذا يممت أرضًا ... أريد الخير أيهما يليني

وقد قال الله تعالى فى الآية الأخرى: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣] وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٩]، والحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بين أن له فيه حكمة وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون فيعلم الشىء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه لا إله إلا هو ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ما ينبغى للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التى بنيت على اسمه وحده لا شريك له، ومن قرأ «مسجد الله» فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد فى الأرض الذى بنى من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له، وأسسه خليل الرحمن، هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر أى بحالهم وقالهم قال السدى: لو سألت النصرانى ما دينك؟ لقال نصرانى، ولو سألت اليهودى ما دينك؟

لقال يهودى، والصابىء لقال صابىء، والمشرك لقال مشرك ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أى بشركهم ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤] ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد كما قال الإمام أحمد: (١) حدثنا شريح، حدثنا ابن وهب عن عمرو بن الحارث، أن دراجًا أبا السمح حدثه عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى، أن رسول الله ﷺ قال «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان». قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ورواه الترمذى وابن مردويه والحاكم فى مستدركه (٢) من حديث عبد الله بن وهب به.

وقال عبد بن حميد فى مسنده: (٣) حدثنا يونس بن محمّد حدثنا صالح المرى عن ثابت البنانى عن ميمون بن سياه وجعفر بن زيد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما عمار المساجد هم أهل الله» ورواه الحافظ أبو بكر البزار: (٤) عن عبد الواحد بن غياث عن صالح بن بشير المرى عن ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما عمار المساجد هم أهل الله» ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابت غير صالح، وقد روى الدار قطنى (٥) فى الأفراد من طريق حكامة بنت عثمان بن دينار عن أبيها عن أخيه مالك بن دينار عن أنس مرفوعًا «إذا أراد الله بقوم عاهة نظر إلى أهل المساجد فصرف عنهم» ثم قال: غريب، وروى الحافظ البهائى (٦) فى المستقصى عن أبيه بسنده إلى أبى أمية الطرسوسى، حدثنا منصور بن صقير، حدثنا صالح المرى عن ثابت عن أنس مرفوعًا يقول الله: وعزتى وجلالى إنى لأهم بأهل الأرض عذابًا فإذا نظرت إلى عمار بيوتى وإلى المتحابين فى وإلى المستغفرين بالأسحار صرفت ذلك عنهم. ثم قال ابن عساكر: حديث غريب.

وقال الإمام أحمد: (٧) حدثنا روح حدثنا سعيد عن قتادة، حدثنا العلاء بن زياد عن معاذ بن جبل أن النبى ﷺ قال: «إن الشيطان ذئب الإنسان، كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد» وقال عبد الرزاق: (٨) عن معمر عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودى قال: أدركت أصحاب محمد ﷺ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله فى الأرض وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها. وقال المسعودى: عن حبيب بن أبى ثابت وعدى بن ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب ويأتي المسجد ويصلى فلا صلاة له وقد عصى الله ورسوله. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ

(١) ضعيف: المسند (٢٧٣٠٨)، (٢٧٣٢٥).
(٢) ضعيف: الترمذي (٢٦١٧)، (٣٠٩٣)، الحاكم في المستدرك (١/ ٣٣٢)، برقم (٧٧٠)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. في إسناده: دراج أبو السمح، ضعيف عن أبي الهيثم. انظر ضعيف الجامع رقم (٥٠٩).
(٣) ضعيف: مسند عبد بن حميد (١/ ٣٨٧)، برقم (١٢٩١).
(٤) البزار رقم (٤٣٣- كشف) في إسناده: صالح المرى، وهو ضعيف: انظر ميزان الاعتدال (٣/ ٣٩٧).
(٥) ضعيف: انظر: ضعيف الجامع رقم (٣٤٥).
(٦) ضعيف: انظر ضعيف الجامع رقم (١٧٥١).
(٧) ضعيف: المسند (٢١٥٢٤). قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٣): العلاء بن زياد لم يسمع من معاذ اهـ.
(٨) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٨٢) برقم (٢٩٤٣)، من طريق عبد الرزاق به.

﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ الآية، رواه ابن مردويه.

وقد روى مرفوعًا من وجه آخر، وله شواهد من وجوه أخر ليس هذا موضع بسطها. وقوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أى التى هى أكبر عبادات البدن ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أى التى هى أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق، وقوله ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أى ولم يخف إلا من الله تعالى ولم يخش سواه ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ يقول: من وحد الله وآمن باليوم الآخر يقول من آمن بما أنزل الله ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعنى الصلوات الخمس ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يقول لم يعبد إلا الله ثم قال: ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ يقول تعالى: إن أولئك هم المفلحون كقوله لنبيه ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] يقول: إن ربك سيبعثك مقامًا محمودًا وهى الشفاعة، وكل عسى فى القرآن فهى واجبة، وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله: وعسى من الله حق.

ثلاثة أرباع الحزب ١٩

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

قال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية قال: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦-٦٧] يعنى أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال ﴿بِهِۦ سَٰمِرًا﴾ [المؤمنون: ٦٧] كانوا يسمرون به ويهجرون القرآن والنبى ﷺ فخير الله الإيمان والجهاد مع النبى ﷺ على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به، وإن كانوا يعمرون بيته ويخدمونه به. قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعنى الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسماهم الله ظالمين بشركهم فلم تغن عنهم العمارة شيئًا.

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية قال: قد نزلت فى العباس بن عبد المطلب حين أسر ببدر قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى الحاج ونفك العانى، قال الله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ - إلى قوله - ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعنى أن ذلك كله كان فى الشرك ولا أقبل ما كان فى الشرك، وقال الضحاك بن مزاحم: أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونفك العانى ونحجب البيت ونسقى الحاج، فأنزل الله ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ الآية.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة عن إسماعيل عن الشعبى: قال: نزلت فى على والعباس

رضى الله عنهما تكلما فى ذلك.

وقال ابن جرير: [١] حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى ابن لهيعة عن أبى صخر قال: سمعت محمد بن كعب القرظى يقول افتخر طلحة بن شيبة من بنى عبد الدار وعباس بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب فقال طلحة: أنا صاحب البيت معى مفتاحه ولو أشاء بت فيه. وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها ولو أشاء بت فى المسجد، فقال على رضى الله عنه: ما أدرى ما تقولان لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله عز وجل ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ الآية كلها، وهكذا قال السدى إلا أنه قال: افتخر على والعباس وشيبة بن عثمان وذكر نحوه.

وقال عبد الرزاق: [٢] أخبرنا معمر عن عمرو عن الحسن قال: نزلت فى على وعباس وعثمان وشيبة تكلموا فى ذلك، فقال العباس: ما أرانى إلا تارك سقايتنا، فقال رسول الله ﷺ «أقيموا على سقايتكم فإن لكم فيها خيرًا» ورواه محمد بن ثور: عن معمر عن الحسن فذكر نحوه، وقد ورد فى تفسير هذه الآية حديث مرفوع فلا بد من ذكره هنا، قال عبد الرزاق: [٣] أخبرنا معمر عن يحيى بن أبى كثير عن النعمان بن بشير رضى الله عنه أن رجلا قال: ما أبالى أن أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج. وقال آخر: ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم. فزجرهم عمر رضى الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صلينا الجمعة دخلنا على النبى ﷺ فسألناه. فنزلت ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ - إلى قوله - ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

(طريق أخرى) قال الوليد بن مسلم حدثنى معاوية بن سلام عن جده أبى سلام الأسود عن النعمان بن بشير الأنصارى قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه فقال رجل منهم: ما أبالى أن لا أعمل لله عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج.

وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام وقال آخر: بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلتم فزجرهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه. وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال ففعل فأنزل الله عز وجل ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ورواه مسلم فى صحيحه وأبو داود وابن جرير وهذا لفظه، وابن مردويه وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم وابن حبان فى صحيحه[٤].

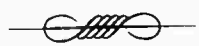

(١) ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٩٦).
(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٤٣).
(٣) صحيح: تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٤٣).
(٤) مسلم (١٨٧٩)، الطبري (١٠/ ٩٥)، ابن حبان في صحيحه (١٠/ ٤٥١)، برقم (٤٥٩١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

أمر تعالى بمباينة الكفار به وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إن ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟﴾ أى اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك كقوله تعالى ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢]، وروى الحافظ البيهقى [١] من حديث عبد الله بن شوذب قال: جعل أبو أبى عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله فأنزل الله فيه هذه الآية ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢]. ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد فى سبيله فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أى اكتسبتموها وحصَّلتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ أى تحبونها لطيبها وحسنها، أى إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أى فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم ولهذا قال ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: [٢] حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن زهرة بن معبد عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال: والله يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل شىء إلا من نفسى، فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلى من نفسى، فقال رسول الله ﷺ «الآن يا عمر» انفرد بإخراجه البخارى [٣] فرواه عن يحيى بن سليمان عن ابن وهب عن حيوة بن شريح عن أبى عقيل زهرة بن معبد أنه سمع جده عبد الله بن هشام عن النبى ﷺ بهذا، وقد ثبت فى الصحيح [٤] عنه ﷺ أنه قال: «والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» وروى الإمام أحمد وأبو داود [٥] واللفظ له من حديث أبى عبد الرحمن الخراسانى عن عطاء الخراسانى عن نافع عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم» وروى الإمام أحمد [٦] أيضا عن يزيد بن هارون

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٢٧)، وقال: هذا منقطع.
(٢) صحيح: المسند (١٨٤٨٢).
(٣) البخاري برقم (٦٦٣٢).
(٤) البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.
(٥) صحيح: المسند (٤٨١٠)، أبو داود (٣٤٦٢).
(٦) المسند (٤٩٨٧).

عن أبى جناب عن شهر بن حوشب أنه سمع عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ بنحو ذلك، وهذا شاهد للذى قبله. والله أعلم.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

قال ابن جريج عن مجاهد: هذه أول آية نزلت من براءة يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم فى نصره إياهم فى مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره لا بعددهم ولا بعددهم ولا بعُددهم ونبههم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو كثر فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئًا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلا ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين.

وقد قال الإمام أحمد: [(١)] حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبى سمعت يونس يحدث عن الزهرى عن عبيد الله عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف ولن تغلب اثنا عشر ألفًا من قلة». وهكذا رواه أبو داود والترمذى [(٢)] ثم قال: هذا حديث حسن غريب جدًا لا يسنده كبير أحد غير جرير بن حازم، وإنما روى عن الزهرى عن النبى ﷺ مرسلاً. وقد رواه ابن ماجه والبيهقى [(٣)] وغيره عن أكثم بن الجون عن رسول الله ﷺ بنحوه والله أعلم. وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة فى شوال سنة ثمان من الهجرة.

وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول الله ﷺ فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه وأن أميرهم مالك بن عوف النضري، ومعه ثقيف بكمالها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بنى هلال وهم قليل وناس من بنى عمرو بن عامر وعوف بن عامر وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم وجاءوا بقضهم وقضيضهم فخرج إليهم رسول الله ﷺ فى جيشه الذى جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء فى ألفين أيضًا فسار بهم إلى العدو فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين فكانت فيه الوقعة فى أول النهار فى غلس الصبح انحدروا فى الوادى وقد كمنت فيه هوازن فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم، ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين كما قال الله عز وجل، وثبت

(١) صحيح: المسند (٢٦٧٧).

(٢) صحيح: أبو داود (٢٦١١)، الترمذي (١٥٥٥)، وقال أبو داود: والصحيح أنه مرسل.

(٣) صحيح: ابن ماجه (٢٨٢٧)، البيهقي في سننه الكبرى (٩/ ١٥٧)، قال البوصيرى في مصباح الزجاجة (٣/ ١٦٩): هذا الإسناد ضعيف، لضعف أبي سلمة العاملي وعبد الملك بن محمد.

رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحو العدو، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر يثقلانها لئلا تسرع السير وهو ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول: «أين يا عباد الله؟ إليَّ أنا رسول الله» ويقول فى تلك الحال: «أنا النبى لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» [1] وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ومنهم من قال ثمانون فمنهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما والعباس وعلى والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم رضى الله عنهم ثم أمر ﷺ عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادى بأعلى صوته يا أصحاب الشجرة يعنى شجرة بيعة الرضوان التى بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن لا يفروا عنه فجعل ينادى بهم يا أصحاب السمرة، ويقول تارة يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون يا لبيك يا لبيك، وانعطف الناس فجعلوا يتراجعون إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله ﷺ أمرهم عليه السلام أن يصدقوا الحملة وأخذ قبضة من تراب بعد ما دعا ربه واستنصره، وقال «اللهم أنجز لى ما وعدتني» ثم رمى القوم بها فما بقى إنسان منهم إلا أصابه منها فى عينيه وفمه ما شغله عن القتال ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجدلة بين يدى رسول الله ﷺ.

وقال الإمام أحمد: [2] حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا يعلى بن عطاء عن عبد الله بن يسار أبى همام عن أبى عبد الرحمن الفهرى واسمه يزيد بن أسيد ويقال يزيد بن أنيس ويقال كرز قال: كنت مع رسول الله ﷺ فى غزوة حنين فسرنا فى يوم قائظ شديد الحر فنزلنا تحت ظلال الشجر فلما زالت الشمس لبست لأمتى وركبت فرسى فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وهو فى فسطاطه فقلت السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته حان الرواح؟ فقال: «أجل» فقال: «يا بلال» فثار من تحت سمرة كأن ظلها ظل طائر فقال: لبيك وسعديك وأنا فداؤك فقال «أسرج لى فرسي» فأخرج سرجًا دفتاه من ليف ليس فيهما أشر ولا بطر قال فأسرج فركب وركبنا فصاففناهم عشيتنا وليلتنا فتشامت الخيلان فولى المسلمون مدبرين كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ «يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله» ثم قال: «يا معشر المهاجرين أنا عبد الله ورسوله» قال ثم اقتحم رسول الله ﷺ عن فرسه فأخذ كفًا من تراب فأخبرنى الذى كان أدنى إليه منى أنه ضرب به وجوههم وقال: «شاهت الوجوه» فهزمهم الله تعالى.

قال يعلى بن عطاء: فحدثنى أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه ترابًا وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض كإمرار الحديد على الطست الحديد، وهكذا رواه الحافظ البيهقى فى دلائل النبوة من حديث أبى داود الطيالسى عن حماد بن سلمة به، وقال محمد بن إسحاق:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، مسلم (١٧٧٦).

(٢) صحيح: المسند (٢١٩٦١).

تنبيه: في مسند أحمد: «قال حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة»

حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله قال: فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين فسبق رسول الله ﷺ إليه فأعدوا وتهيئوا فى مضايق الوادى وأحنائه وأقبل رسول الله ﷺ وأصحابه حتى انحط بهم الوادى فى عماية الصبح فلما انحط الناس ثارت فى وجوههم الخيل فشدت عليهم وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد وانحاز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات اليمين يقول: «أيها الناس هلموا إلى أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله» فلا شىء وركبت الإبل بعضها بعضًا فلما رأى رسول الله ﷺ أمر الناس قال: «يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة» فأجابوه لبيك، لبيك، فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك فيقذف درعه فى عنقه ويأخذ سيفه وقوسه ثم يؤم الصوت حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مائة فاستعرض الناس فاقتتلوا وكانت الدعوة أول ما كانت بالأنصار ثم جعلت آخرًا بالخزرج وكانوا صُبُرًا عند الحرب وأشرف رسول الله ﷺ فى ركائبه فنظر إلى مجتلد القوم فقال: «الآن حمى الوطيس» قال: فو الله ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول الله ملقون فقتل الله منهم من قتل وانهزم منهم من انهزم وأفاء الله على رسوله أموالهم وأبناءهم.

وفى الصحيحين [1] من حديث شعبة عن أبى إسحاق عن البراء بن عازب رضى الله عنهما أن رجلا قال له: يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قوما رماة فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول: «أنا النبى لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» قلت: وهذا فى غاية ما يكون من الشجاعة التامة إنه فى مثل هذا اليوم فى حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجرى ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب وهو مع هذا أيضًا يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكل عليه وعلم منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أى طمأنينته وثباته على رسوله ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى الذين معه ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة كما قال الإمام أبو جعفر ابن جرير حدثنى الحسن بن عرفة قال حدثنى المعتمر بن سليمان عن عوف هو ابن أبى جميلة الأعرابى قال سمعت عبد الرحمن مولى بن برثن حدثنى رجل كان مع المشركين يوم حنين قال لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حَلَبَ شاة، قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم فى آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله ﷺ قال: فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه فقالوا لنا شاهت الوجوه ارجعوا قال فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى: [2] أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثنى محمد بن أحمد بن بالويه حدثنا إسحاق بن الحسن الحربى حدثنا عفان بن مسلم حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الحارث بن حصيرة حدثنا القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه قال: قال ابن مسعود رضى الله عنه: كنت مع رسول الله ﷺ يوم

(١) البخاري (٢٨٦٤)، مسلم (١٧٧٦).
(٢) صحيح: البيهقي في دلائل النبوة (٥/١٤٣).

حنين فولى عنه الناس وبقيت معه فى ثمانين رجلا من المهاجرين والأنصار قدمنا ولم نولهم الدبر وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة قال: ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضى قدما فحادت بغلته فمال عن السرج فقلت: ارتفع رفعك الله. قال: «ناولنى كفًا من التراب» فناولته قال: فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم ترابًا قال: «أين المهاجرون والأنصار؟» قلت: هم هناك قال: «اهتف بهم» فهتفت بهم فجاءوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب وولى المشركون أدبارهم، ورواه الإمام أحمد [1] فى مسنده عن عفان به نحوه.

وقال الوليد بن مسلم: حدثنى عبد الله بن المبارك عن أبى بكر الهذلى عن عكرمة مولى ابن عباس عن شيبة بن عثمان قال: لما رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عرى ذكرت أبى وعمى وقتل على وحمزة إياهما فقلت اليوم أدرك ثأرى منه قال: فذهبت لأجيئه عن يمينه فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائما عليه درع بيضاء كأنها فضة يكشف عنها العجاج فقلت: عمه ولن يخذله قال فجئته عن يساره فإذا أنا بأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فقلت: ابن عمه ولن يخذله فجئته من خلفه فلم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف إذ رفع لى شواظ من نار بينى وبينه كأنه برق فخفت أن تمحشنى فوضعت يدى على بصرى ومشيت القهقرى فالتفت رسول الله ﷺ وقال: «يا شيب يا شيب ادن منى، اللهم أذهب عنه الشيطان» قال: فرفعت إليه بصرى ولهو أحب إلى من سمعى وبصرى فقال: «يا شيب قاتل الكفار» رواه البيهقى من حديث الوليد فذكره.

ثم روى من حديث أيوب بن جابر عن صدقة بن سعيد عن مصعب بن شيبة عن أبيه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين والله ما أخرجنى إسلام ولا معرفة به ولكننى أبيت أن تظهر هوازن على قريش فقلت وأنا واقف معه: يا رسول الله إنى أرى خيلا بلقًا فقال: «يا شيبة إنه لا يراها إلا كافر» فضرب يده في صدرى ثم قال: «اللهم اهد شيبة» ثم ضربها الثانية ثم قال: «اللهم اهد شيبة» ثم ضربها الثالثة ثم قال: «اللهم اهد شيبة» قال: فو الله ما رفع يده عن صدرى فى الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحب إلى منه وذكر تمام الحديث ثم التقاء الناس وانهزام المسلمين ونداء العباس واستنصار رسول الله ﷺ حتى هزم الله تعالى المشركين.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى والدى إسحاق بن يسار عمن حدثه عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين والناس يقتتلون إذ نظرت إلى مثل البجاد الأسود يهوى من السماء حتى وقع بيننا وبين القوم فإذا نمل منثور قد ملأ الوادى فلم يكن إلا هزيمة القوم فما كنا نشك أنها الملائكة.

وقال سعيد بن السائب بن يسار عن أبيه قال: سمعت يزيد بن عامر السوائى وكان شهد حنينًا مع المشركين ثم أسلم بعد فكنا نسأله عن الرعب الذى ألقى الله فى قلوب المشركين يوم حنين فكان يأخذ الحصاة فيرمى بها فى الطست فيطن فيقول كنا نجد فى أجوافنا مثل هذا، وقد تقدم له شاهد من حديث يزيد بن أبى أسيد فالله أعلم، وفى صحيح مسلم [2] عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق أنبأنا معمر عن همام قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم»

(١) صحيح: المسند (٤٣٢٤).
(٢) مسلم برقم (٥٢٣).

ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ قد تاب الله على بقية هوازن وأسلموا وقدموا عليه مسلمين ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوما فعند ذلك خيرهم بين سبيهم وبين أموالهم فاختاروا سبيهم وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبى وامرأة، فرده عليهم وقسم الأموال بين الغانمين ونفل أناسًا من الطلقاء لكى يتألف قلوبهم على الإسلام فأعطاهم مائة مائة من الإبل وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النّصْرى واستعمله على قومه كما كان فامتدحه بقصيدته التى يقول فيها:

ما إن رأيتُ ولا سمعت بمثله ... فى الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ... ومتى تشأْ يُخبرْك عما فى غد
وإذا الكتيبة عَرَّدتْ أنيابها ... بالسَّمهريِّ وضرب كل مهند
فكأنه ليث على أشباله ... وسط الهباءة خادر فى مرصد

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين دينًا وذاتًا بنفى المشركين الذين هم نجس دينًا عن المسجد الحرام وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية وكان نزولها فى سنة تسع ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليًا صحبة أبى بكر رضى الله عنهما عامئذ وأمره أن ينادى فى المشركين أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. فأتم الله ذلك وحكم به شرعًا وقدرًا.

وقال عبد الرزاق [1]: أخبرنا ابن جريج أخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ إلا أن يكون عبدًا أو أحدًا من أهل الذمة. وقد روى مرفوعًا من وجه آخر فقال الإمام أحمد [2] حدثنا حسن حدثنا شريك عن الأشعث يعنى ابن سوار عن الحسن عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل مسجدنا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمكم» تفرد به الإمام أحمد مرفوعًا والموقوف أصح إسنادًا. وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعى، كتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين وأتبع نهيه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.

وقال عطاء: الحرم كله مسجد لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ ودلت

(١) عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٧١).
(٢) المسند (١٤٧٩٩)، قال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٠): فيه أشعث بن سوار وفيه ضعف، وقد وثق.

هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما دلت على طهارة المؤمن؛ لما ورد فى الصحيح [١] «المؤمن لا ينجس» وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم، وقال أشعث عن الحسن: من صافحهم فليتوضأ. رواه ابن جرير.

وقوله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ قال محمد بن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا لتنقطعن عنا الأسواق ولتهلكن التجارة وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق فنزلت ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ من وجه غير ذلك ﴿إِن شَآءَ﴾ إلى قوله ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: إن هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق فعوضهم الله بما قطع عنهم من أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية، وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أى بما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ أى فيما يأمر به وينهى عنه لأنه الكامل فى أفعاله وأقواله العادل فى خلقه وأميره تبارك وتعالى ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التى يأخذونها من أهل الذمة. فقال: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ فهم فى نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاءوا به وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه، لأنهم لوكانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانًا صحيحًا لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل عُلِم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله. بل لحظوظهم وأهوائهم فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم، ولهذا قال: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس فى دين الله أفواجًا فلما استقرت جزيرة العرب أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى وكان ذلك فى سنة تسع ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم فأوعبوا معه واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفًا وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك فى عام جدب ووقت قيظ وحر وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك فنزل بها وأقام بها قريبًا من عشرين يوما ثم استخار الله فى الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس كما سيأتى بيانه بعد إن شاء الله تعالى.

وقد استدل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر وهذا مذهب الشافعى وأحمد فى المشهور عنه وقال أبو حنيفة رحمه الله. بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب.

---

(١) البخاري (٢٨٣)، مسلم (٣٧١).

وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابى ومجوسى ووثنى وغير ذلك ولمآخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا والله أعلم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أى إن لم يسلموا ﴿عَن يَدٍ﴾ أى عن قهر لهم وغلبة ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أى ذليلون حقيرون مهانون فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين بل هم أذلاء صغرة أشقياء كما جاء فى صحيح مسلم [1] عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروه إلى أضيقه».

ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه تلك الشروط المعروفة فى إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعرى قال: كتبت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث فى مدينتنا ولا فيما حولها ديرًا ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا نحيى منها ما كان خططًا للمسلمين وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين فى ليل ولا نهار وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ولا نؤوى فى كنائسنا ولا منازلنا جاسوسًا ولا نكتم غشًا للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شركًا ولا ندعو إليه أحدًا ولا نمنع أحدًا من ذوى قرابتنا الدخول فى الإسلام إن أرادوه وأن نوقر المسلمين وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس ولا نتشبه بهم فى شىء من ملابسهم فى قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولانكتنى بكناهم لا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئًا من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش خواتيمنا بالعربية ولا نبيع الخمور وأن نجز مقاديم رؤوسنا وأن نلزم زينا حيثما كنا وأن نشد الزنانير على أوساطنا وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا فى شىء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نضرب نواقيسنا فى كنائسنا إلا ضربًا خفيًا وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة فى كنائسنا فى شىء من حضرة المسلمين ولا نخرج سعانين ولا باعوثًا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران معهم فى شىء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم فى منازلهم. قال فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه ولا نضرب أحدًا من المسلمين شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان فإن نحن خالفنا فى شىء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

(١) مسلم برقم (٢١٦٧).

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة والفرية على الله تعالى فأما اليهود فقالوا فى العزير: إنه ابن الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وذكر السدى وغيره أن الشبهة التى حصلت لهم فى ذلك أن العمالقة لما غلبت على بنى إسرائيل فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم بقى العزير يبكى على بنى إسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه فبينما هو ذات يوم إذ مر على جبانة وإذا امرأة تبكى عند قبر وهى تقول: وامطعماه واكاسياه فقال لها: ويحك من كان يطعمك قبل هذا؟ قالت: الله قال: فإن الله حى لا يموت، قالت يا عزير فمن كان يعلم العلماء قبل بنى إسرائيل؟ قال: الله. قالت: فلم تبكى عليهم؟ فعرف أنه شىء قد وعظ به ثم قيل له اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه وصل هناك ركعتين فإنك ستلقى هناك شيخًا فما أطعمك فكله فذهب ففعل ما أمر به فإذا الشيخ فقال له: افتح فمك ففتح فمه فألقى فيه شيئًا كهيئة الجمرة العظيمة ثلاث مرات فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة فقال: يا بنى إسرائيل قد جئتكم بالتوراة فقالوا يا عزير ما كنت كذابًا فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلما وكتب التوراة بأصبعه كلها فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء أخبروا بشأن عزير فاستخرجوا النسخ التى كانوا أودعوها فى الجبال وقابلوها بها فوجدوا ما جاء به صحيحًا فقال بعض جهلتهم: إنما صنع هذا لأنه ابن الله.

وأما ضلال النصارى فى المسيح فظاهر، ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أى لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلاقهم ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ أى يشابهون ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أى من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؟ أى كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟.

وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير [1] من طرق عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام وكان قد تنصر فى الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته فى الإسلام وفى القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدى إلى المدينة وكان رئيسًا فى قومه طىء وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفى عنق عدى صليب من فضة فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم فقال: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وحللوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم» وقال رسول الله ﷺ «يا عدى ما تقول؟ أيفرك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئًا أكبر من الله؟ ما يفرك؟، أيفرك أن يقال لا إله إلا الله؟ فهل تعلم مِنْ إله

(١) الترمذي (٣٠٩٥)، ابن جرير في تفسيره (١٠/ ١١٤).

إلا الله؟» ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق قال فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال «إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون» وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما فى تفسير ﴿اتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا، وقال السدى: استنصحوا الرجال تركوا كتاب الله وراء ظهورهم ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أى الذى إذا حرم الشىء فهو الحرام وما حلله فهو الحلال وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أى ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافترائهم فمثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس أو نور القمر بنفخة وهذا لا سبيل إليه فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لابد أن يتم ويظهر ولهذا قال تعالى مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ والكافر هو الذى يستر الشىء ويغطيه ومنه سمى الليل كافرًا لأنه يستر الأشياء والزارع كافرًا لأنه يغطى الحب فى الأرض كما قال ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠] ثم قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع ودين الحق هى الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة فى الدنيا والآخرة.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أى على سائر الأديان كما ثبت فى الصحيح [١] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى لى الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها»، وقال الإمام أحمد: [٢] حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن محمد بن أبى يعقوب سمعت شقيق بن حيان يحدث عن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول: صلى هذا الحى من محارب الصبح فلما صلوا قال شاب منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإن عمالها فى النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة»، وقال الإمام أحمد: [٣] حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثنا سليم بن عامر عن تميم الدارى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزًّا يعز الله به الإسلام وذلا يذل الله به الكفر» فكان تميم الدارى يقول: قد عرفت ذلك فى أهل بيتى لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ولقد أصاب من كان منهم كافرًا الذل والصغار والجزية.

---

(١) مسلم برقم (٢٨٨٩)، أبو داود (٤٢٥٢)، الترمذي (٢١٧٦)، من حديث ثوبان به.
(٢) المسند (٢٢٥٩٩). (٣) صحيح: المسند (١٦٥٠٩).

وقال الإمام أحمد: [١] حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد بن مسلم حدثنى ابن جابر سمعت سليم بن عامر قال سمعت المقداد بن الأسود يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز وبذل ذلك إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما يذلهم فيدينون لها» وفى المسند أيضًا [٢] حدثنا محمد بن أبى عدى عن ابن عون عن ابن سيرين عن أبى حذيفة عن عدى بن حاتم سمعه يقول: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «يا عدى أسلم تسلم» فقلت إنى من أهل دين قال: «أنا أعلم بدينك منك» فقلت أنت أعلم بدينى مني؟ قال: «نعم ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك؟».

قلت: بلى! قال: «فإن هذا لا يحل لك فى دينك» قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها، قال: «أما إنى أعلم ما الذى يمنعك من الإسلام، تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له وقد رمتهم العرب أتعرف الحيرة؟» قلت لم أرها وقد سمعت بها، قال: «فو الذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز» قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم كسرى بن هرمز، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد».

قال عدى بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها. وقال مسلم: [٣] حدثنا أبو معن زيد بن يزيد الرقاشى حدثنا خالد بن الحارث حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن الأسود بن العلاء عن أبى سلمة عن عائشة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى» فقلت: يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ الآية، أن ذلك تام، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل، ثم يبعث الله ريحًا طيبة فيتوفى كل من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم».

الحزب ٢٠

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قال السدى: الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى وهو كما قال فإن الأحبار هم علماء اليهود كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣] والرهبان عباد النصارى والقسيسون علماؤهم كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢] والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلالة كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى. وفى

(١) صحيح: المسند (٢٣٣٠٢).
(٢) صحيح: المسند (١٨٨٨).
(٣) مسلم (٢٩٠٧).

الحديث الصحيح [١] «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة» قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟ وفى رواية فارس والروم؟ قال: «فمن الناس إلا هؤلاء؟» والحاصل التحذير من التشبه بهم فى أحوالهم وأقوالهم ولهذا قال تعالى: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم فى الناس يأكلون أموالهم بذلك كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجىء إليهم فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعًا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات فأطفأها الله بنور النبوة وسلبهم إياها وعوضهم الذل والصغار وباءوا بغضب من الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق ويلبسون الحق بالباطل ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير وليسوا كما يزعمون بل هم دعاة إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال ابن المبارك:

وهل أفسد الدينَ إلا الملوكُ ... وأحبار سوء ورهبانها

وأما الكنز فقال مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنه قال: هو المال الذى لا تؤدي منه زكاة، وروى الثورى وغيره عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال: ما أُدّى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين وما كان ظاهرًا لا تؤدى زكاته فهو كنز [٢]، وقد روى هذا عن ابن عباس وجابر وأبى هريرة موقوفًا ومرفوعًا، وقال عمر بن الخطاب نحوه أيما مال أديت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونًا فى الأرض، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض، وروى البخارى [٣] من حديث الزهرى عن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال، وكذا قال عمر بن عبد العزيز وعراك بن مالك: نسخها قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية[التوبة: ١٠٣].

وقال سعيد بن محمد بن زياد عن أبى أمامة أنه قال: حلية السيوف من الكنز. ما أحدثكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ وقال الثورى عن أبى حصين عن أبى الضحى عن جعدة بن هبيرة عن على رضى الله عنه قال: أربعة آلاف فما دونها نفقة فما كان أكثر من ذلك فهو كنز وهذا غريب وقد جاء فى مدح التقلل من الذهب والفضة وذم التكثر منهما أحاديث كثيرة. ولنورد منها هنا طرفا يدل على الباقى قال عبد الرزاق: أخبرنا الثورى أخبرنى أبو حصين عن أبى الضحى عن جعدة بن هبيرة عن على رضى الله عنه فى قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية. قال النبى ﷺ: «تبًّا للذهب تبًا للفضة» يقولها ثلاثًا قال فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: فأى

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، مسلم (٢٦٦٩). من حديث أبي سعيد الخدري بنحوه.

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٤/ ١٠٧)، برقم (٧١٤١) عن عبيد الله به.

(٣) البخاري برقم (١٤٠٤).

مال نتخذ؟ فقال عمر رضى الله عنه أنا أعلم لكم ذلك فقال: يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم وقالوا: فأى المال نتخذ؟ قال: «لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا وزوجة تعين أحدكم على دينه».

(حديث آخر): قال الإمام أحمد[١]: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة حدثنى سالم بن عبد الله أخبرنا عبد الله بن أبى الهذيل حدثنى صاحب لى أن رسول اللهﷺ قال «تبًّا للذهب والفضة» قال: فحدثنى صاحبى أنه انطلق مع عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله قولك: «تبًّا للذهب والفضة» ماذا ندخر؟ قال رسول اللهﷺ: «لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا وزوجة تعين على الآخرة».

(حديث آخر): قال الإمام أحمد[٢]: حدثنا وكيع حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة عن أبيه عن سالم بن أبى الجعد عن ثوبان قال: لما نزل فى الذهب والفضة ما نزل قالوا: فأى المال نتخذ؟ قال عمر: فأنا أعلم لكم ذلك فأوضع على بعير فأدركه وأنا فى أثره فقال: يا رسول الله أى المال نتخذ؟ قال: «ليتخذ أحدكم قلبًا شاكرًا ولسانًا ذاكرًا وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة» ورواه الترمذى وابن ماجه[٣] من غير وجه عن سالم بن أبى الجعد وقال الترمذى حسن، وحكى عن البخارى أن سالما لم يسمعه من ثوبان قلت: ولهذا رواه بعضهم عنه مرسلاً، والله أعلم.

(حديث آخر): قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا حميد بن مالك حدثنا يحيى بن يعلى المحاربى حدثنا أبى حدثنا غيلان بن جامع المحاربى عن عثمان أبى اليقظان عن جعفر بن أبى إياس عن مجاهد عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ الآية، كبر ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحد منا أن يترك لولده مالاً يبقى بعده فقال عمر: أنا أفرج عنكم فانطلق عمر واتبعه ثوبان فأتى النبىﷺ فقال: يا نبى الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية، فقال رسول اللهﷺ: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم» قال فكبر عمر ثم قال له النبىﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته» ورواه أبو داود والحاكم فى مستدركه[٤] وابن مردويه من حديث يحيى بن يعلى به وقال الحاكم: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد[٥]: حدثنا روح حدثنا الأوزاعى عن حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس رضى الله عنه فى سفر فنزل منزلا فقال لغلامه ائتنا بالشفرة نعبث بها فأنكرت عليه فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمها غير كلمتى هذه فلا تحفظوها على واحفظوا ما أقول لكم سمعت رسول اللهﷺ يقول: «إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك وأسألك حسن

---

(١) حسن: المسند (٢٢٥٩١). (٢) حسن: المسند (٢١٩٣١).

(٣) حسن: الترمذي (٣٠٩٤)، ابن ماجه (١٨٥٦).

(٤) ضعيف: أبو داود (١٦٦٤)، والحاكم (٢/ ٣٦٣)، برقم (٣٢٨١)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، انظر ضعيف الجامع رقم (١٦٤٣).

(٥) حسن لغيره: المسند (١٦٦٦٥).

عبادتك وأسألك قلبًا سليما وأسألك لسانًا صادقًا وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب».

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أى يقال لهم هذا الكلام تبكيتًا وتقريعًا وتهكما كما فى قوله ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٨-٤٩] أى هذا بذاك وهذا الذى كنتم تكنزون لأنفسكم ولهذا يقال من أحب شيئًا وقدمه على طاعة الله عذب به وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها كما كان أبو لهب لعنه الله جاهدًا فى عداوة الرسول ﷺ وامرأته تعينه فى ذلك كانت يوم القيامة عونًا على عذابه أيضًا ﴿فِي جِيدِهَا﴾ [المسد: ٥] أى عنقها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥] أى تجمع من الحطب فى النار وتلقى عليه ليكون ذلك أبلغ فى عذابه ممن هو أشفق عليه كان فى الدنيا كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأموال على أربابها كانت أضر الأشياء عليهم فى الدار الآخرة فيحمى عليها فى نار جهنم وناهيك بحرها فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. قال سفيان عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود: والله الذي لا إله غيره لا يكوى عبد يكنز فيمس دينار دينارًا ولا درهم درهما ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته، وقد رواه ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعًا ولا يصح رفعه والله أعلم.

وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال: بلغنى أن الكنز يتحول يوم القيامة شجاعًا يتبع صاحبه وهو يفر منه ويقول: أنا كنزك لا يدرك منه شيئًا إلا أخذه. وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير [١] حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة عن سالم بن أبى الجعد عن معدان بن أبى طلحة عن ثوبان أن رسول الله ﷺ كان يقول «من ترك بعده كنزًا مُثّل له يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان يتبعه ويقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الذى تركته بعدك ولا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ثم يتبعها سائر جسده» ورواه ابن حبان فى صحيحه [٢] من حديث يزيد عن سعيد به وأصل هذا الحديث فى الصحيحين [٣] من رواية أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه، وفى صحيح مسلم [٤] من حديث سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» وذكر تمام الحديث. وقال البخارى [٥] فى تفسير هذه الآية حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن حصين عن زيد بن وهب قال: مررت على أبى ذر بالربذة فقلت ما أنزلك بهذه الأرض؟.

قال كنا بالشام فقرأت ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم

---

(١) صحيح: تفسير الطبري (١٠/ ١٢٤).
(٢) صحيح: ابن حبان (٨/ ٤٩)، برقم (٣٢٥٧)، انظر: صحيح الترغيب والترهيب رقم (١١٣٦).
(٣) البخاري برقم (٤٦٥٩). (٤) مسلم برقم (٩٨٧).
(٥) البخاري برقم (٤٦٦١).

﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فقال معاوية ما هذا فينا ما هذه إلا فى أهل الكتاب، قال: قلت إنها لفينا وفيهم ورواه ابن جرير [١] من حديث عبثر بن القاسم عن حصين عن زيد بن وهب عن أبى ذر رضى الله عنه فذكره وزاد فارتفع فى ذلك بينى وبينه القول فكتب إلى عثمان يشكونى فكتب إلىَّ عثمان أن أقبل إليه قال فأقبلت إليه فلما قدمت المدينة ركبنى الناس كأنهم لم يرونى قبل يومئذ فشكوت ذلك إلى عثمان فقال لى: تنح قريبًا قلت: والله لن أدع ما كنت أقول.

(قُلْتُ) كان من مذهب أبى ذر رضى الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال وكان يفتى بذلك ويحثهم عليه ويأمرهم به ويغلظ فى خلافه فنهاه معاوية فلم ينته فخشى أن يضر الناس فى هذا فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان وأن يأخذ الذي يأخذه إليه فاستقدمه عثمان إلى المدينة وأنزله بالرّبذة وحده وبها مات رضى الله عنه فى خلافة عثمان. وقد اختبره معاوية رضى الله عنه وهو عنده هل يوافق عمله قوله؟ فبعث إليه بألف دينار ففرقها من يومه ثم بعث إليه الذى أتاه بها فقال إن معاوية إنما بعثنى إلى غيرك فأخطأت فهات الذهب فقال ويحك إنها خرجت ولكن إذا جاء مالى حاسبناك به وهكذا روى على بن أبى طلحة عن ابن عباس أنها عامة.

وقال السدى: هى فى أهل القبلة وقال الأحنف بن قيس قدمت المدينة فبينا أنا فى حلقة فيها ملأ من قريش إذ جاء رجل أخشن الثياب أخشن الجسد أخشن الوجه فقام عليهم فقال: بشر الكانزين برضف يحمى عليه فى نار جهنم فيوضع على حلمة ثدى أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل، قال فوضع القوم رؤوسهم فما رأيت أحدًا منهم رجع إليه شيئًا قال وأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية فقلت: ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم، فقال: إن هؤلاء لا يعلمون شيئًا، وفى الصحيح [٢] أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر: «ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهبًا يمر عليه ثلاثة أيام وعندى منه شىء إلا دينار أرصده لدين» فهذا والله أعلم هو الذى حدا بأبى ذر على القول بهذا.

وقال الإمام أحمد [٣] حدثنا عفان حدثنا همام حدثنا قتادة عن سعيد بن أبى الحسن عن عبد الله بن الصامت رضى الله عنه أنه كان مع أبى ذر فخرج عطاؤه ومعه جارية فجعلت تقضى حوائجه ففضلت معها سبعة فأمرها أن تشترى به فلوسًا قال: قلت لو ادخرته لحاجة تنوبك وللضيف ينزل بك قال إن خليلى عهد إلى أن أيما ذهب أو فضة أوكىء عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله عز وجل. ورواه [٤] عن يزيد عن همام به وزاد: إفراغًا.

وقال الحافظ ابن عساكر بسنده إلى أبى بكر الشبلى فى ترجمته عن محمد بن مهدى حدثنا عمرو بن أبى سلمة عن صدقة بن عبد الله عن طلحة بن زيد عن أبى فروة الرهاوى عن عطاء عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الق الله فقيرًا، ولا تلقه غنيًا» قال: يا رسول الله كيف

---

(١) صحيح: تفسير الطبري (١٠/ ١٢١).
(٢) البخاري برقم (١٤٠٧)، مسلم برقم (٩٢٢) من حديث الأحنف بن قيس، وثبت نحوه من حديث أبي هريرة، رواه البخاري (٢٣٨٩)، ومسلم (٩٩١).
(٣) صحيح: المسند (٢٠٨٧٦). (٤) المسند (٢٠٩٥٠).

لى بذلك؟ قال: «ما سئلت فلا تمنع، وما رزقت فلا تختبىء» قال: يا رسول الله كيف لى بذلك؟ قال رسول الله ﷺ: «هو ذاك وإلا فالنار» [١] إسناده ضعيف.

وقال الإمام أحمد [٢] حدثنا عفان حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا عتينة عن بريد بن الصرم قال سمعت عليًا رضى الله عنه يقول مات رجل من أهل الصفة وترك دينارين أو درهمين فقال رسول الله ﷺ: «كيتان، صلوا على صاحبكم» وقد روى هذا من طرق أخر [٣]، وقال قتادة عن شهر بن حوشب عن أبى أمامة صدى بن عجلان قال: مات رجل من أهل الصفة فوجد فى مئزره دينار فقال رسول الله ﷺ «كية» ثم توفى رجل آخر فوجد فى مئزره ديناران فقال رسول الله ﷺ «كيتان» وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الفراديسى حدثنا معاوية بن يحيى الاطرابلسى حدثنى أرطاة حدثنى أبو عامر الهوزنى سمعت ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل يموت وعنده أحمر أو أبيض إلا جعل الله بكل قيراط صفحة من نار يكوى بها من قدمه إلى ذقنه» وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمود بن خداش حدثنا سيف بن محمد الثورى حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يوضع الدينار على الدينار، ولا الدرهم على الدرهم ولكن يوسع جلده فيكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون» سيف هذا كذاب متروك.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

قال الإمام أحمد [٤] حدثنا إسماعيل أخبرنا أيوب أخبرنا محمد بن سيرين عن أبى بكرة أن النبى ﷺ خطب فى حجته فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان» ثم قال «ألا أى يوم هذا؟» قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا بلى ثم قال: «أى شهر هذا؟» قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا بلى ثم قال: «أى بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس البلدة؟» قلنا بلى قال: «فإن دماءكم وأموالكم - وأحسبه قال - وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا. وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا لا ترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض ألا هل بلغت؟ ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من يسمعه» رواه

---

(١) ضعيف: أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٢٥)، عن بلال، وقال: رواه الطبراني في الكبير، وفيه طلحة بن زيد القرشي وهو ضعيف. اهـ.

(٢) المسند (٧٩٠)، قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٤٠)، فيه عتيبة الضرير وهو مجهول، وبقية رجاله وثقوا.

(٣) حسن لغيره: المسند (٢١٦٧٠).

(٤) صحيح: المسند (١٩٨٧٣).

البخارى [١] فى التفسير وغيره. ومسلم [٢] من حديث أيوب عن محمد وهو ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه به، وقد قال ابن جرير [٣] حدثنا معمر بن محمد حدثنا روح حدثنا أشعث عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم: ثلاثة متواليات - ذو القعدة وذو الحجة والمحرم - ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان» ورواه البزار عن محمد بن معمر به. ثم قال لا يروى عن أبى هريرة إلا من هذا الوجه، وقد رواه ابن عون وقرة [٤] عن ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه به، وقال ابن جرير [٥] أيضًا حدثنى موسى بن عبد الرحمن المسروقى حدثنا زيد بن حباب حدثنا موسى بن عبيدة الربذى حدثنى صدقة بن يسار عن ابن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ فى حجة الوداع بمنى فى أوسط أيام التشريق فقال «أيها الناس إن الزمان قد استدار فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم أولهن رجب مضر بين جمادى وشعبان، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم» وروى ابن مردويه من حديث موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر مثله أو نحوه وقال حماد بن سلمة حدثنى على بن زيد عن أبى حرة حدثني الرقاشى عن عمه وكانت له صحبة قال: كنت آخذًا بزمام ناقة رسول الله ﷺ فى أوسط أيام التشريق أذود الناس عنه فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم» وقال سعيد بن منصور حدثنا أبو معاوية عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ قال محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة. وقوله ﷺ فى الحديث: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه، وتثبيت للأمر على ما جعله الله تعالى، فى أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسىء ولا تبديل كما قال فى تحريم مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة» وهكذا قال ههنا «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» أى الأمر اليوم شرعًا كما ابتدع الله ذلك فى كتابه يوم خلق السموات والأرض.

وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث إن المراد بقوله «قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» أنه اتفق أن حج رسول الله ﷺ فى تلك السنة فى ذى الحجة وأن العرب قد كانت نسأت النسىء يحجون فى كثير من السنين بل أكثرها فى غير ذى الحجة وزعموا أن حجة الصديق فى سنة تسع كانت فى ذى القعدة وفى هذا نظر كما سنبينه إذا تكلمنا عن النسىء وأغرب منه ما رواه الطبرانى عن بعض السلف فى جملة حديث أنه اتفق حج المسلمين واليهود والنصارى فى يوم

---

(١) البخاري برقم (٤٤٠٦).
(٢) مسلم برقم (١٦٧٩).
(٣) الطبري في تفسيره (١٠/ ١٢٥).
(٤) مسند البزار (٩/ ٨٦)، برقم (٣٧١٧).
(٥) تفسير الطبري (١٠/ ١٢٤- ١٢٥).

واحد وهو يوم النحر عام حجة الوداع والله اعلم.

(فصل) ذكر الشيخ علم الدين السخاوى فى جزء جمعه سماه «المشهور فى أسماء الأيام والشهور» أن المحرم سمى بذلك لكونه شهرًا محرمًا، وعندى أنه سمى بذلك تأكيدا لتحريمه لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عاما وتحرمه عاما قال ويجمع على محرمات ومحارم ومحاريم، وصفر سمى بذلك لخلو بيوتهم منهم حين يخرجون للقتال والأسفار يقال صفر المكان إذا خلا ويجمع على أصفار كجمل وأجمال، وشهر ربيع الأول سمى بذلك لارتباعهم فيه والارتباع الإقامة فى عمارة الربع ويجمع على أربعاء كنصيب وأنصباء، وعلى أربعة كرغيف وأرغفة، وربيع الآخر كالأول. وجمادى سمى بذلك لجمود الماء فيه، قال وكانت الشهور فى حسابهم لا تدور، وفى هذا نظر إذ كانت شهورهم منوطة بالأهلة ولابد من دورانها فلعلهم سموه بذلك أول ما سمى عند جمود الماء فى البرد، كما قال الشاعر:

وليلةٍ من جمادى ذات أندية ... لا يبصر العبد فى ظلمائها الطُّنُبَا

لا ينبح الكلب فيها غيرَ واحدة ... حتى يلف على خرطومه الذنبا

وتجمع على جماديات كحبارى وحباريات وقد يذكر ويؤنث فيقال جمادى الأولى والأول وجمادى الآخر والآخرة. رجب من الترجيب وهو التعظيم ويجمع على أرجاب ورجاب ورجبات. شعبان من تشعب القبائل وتفرقها للغارة ويجمع على شعابين وشعبانات. رمضان من شدة الرمضاء وهو الحر يقال رمضت الفصال إذا عطشت ويجمع على رمضانات ورماضين وأرمضة قال: وقول من قال إنه اسم من أسماء الله خطأ لا يعرج عليه ولا يلتفت إليه، قلت: قد ورد فيه حديث ولكنه ضعيف وبينته فى أول كتاب الصيام. شوال من شالت الإبل بأذنابها للطراق قال ويجمع على شواول وشواويل وشوالات. القعدة بفتح القاف، قلت وكسرها، لقعودهم فيه عن القتال والترحال ويجمع على ذوات القعدة. الحجة بكسر الحاء قلت وفتحها سمى بذلك لإقامتهم الحج فيه، ويجمع على ذوات الحجة، أسماء الأيام أولها الأحد ويجمع على آحاد وأُحاد ووحود، ثم يوم الاثنين ويجمع على أثانين، الثلاثاء يمد ويذكر ويؤنث ويجمع على ثلاثاوات وأثالث، ثم الأربعاء بالمد ويجمع على أربعاوات وأرابيع والخميس يجمع على أخمسة وأخامس ثم الجمعة بضم الميم وإسكانها وفتحها أيضًا ويجمع على جمع وجمعات، السبت مأخوذ من السبت وهو القطع لانتهاء العدد عنده وكانت العرب تسمى الأيام أول ثم أهون ثم جبار ثم دبار ثم مؤنس ثم العروبة ثم شيار، قال الشاعر من العرب العرباء العاربة المتقدمين:

أُرجِّى أن أعيش وإن يومي ... بأول أو بأهون أو جبار

أو التالى دبار فإنْ أفتهُ ... فمؤنس أو عروبة أو شيار

وقوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ فهذا مما كانت العرب أيضًا فى الجاهلية تحرمه وهو الذى كان عليه جمهورهم إلا طائفة منهم يقال لهم: البسل كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقًا وتشديدًا، وأما قوله «ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان» فإنما أضافه إلى مضر ليبين صحة قولهم فى رجب أنه الشهر الذى بين جمادى وشعبان لا كما كانت تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذى بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم فبين ﷺ أنه

رجب مضر لا رجب ربيعة، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ثلاثة سرد وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة فحرم قبل شهر الحج شهر وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال وحرم شهر ذى الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون بأداء المناسك وحرم بعده شهر آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى نائي أقصى بلادهم آمنين، وحرم رجب فى وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنًا.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أى هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحذو بها على ما سبق في كتاب الله الأول وقال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أى فى هذه الأشهر المحرمة لأنها آكد وأبلغ فى الإثم من غيرها كما أن المعاصى فى البلد الحرام تضاعف لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام، ولهذا تغلظ فيه الدية فى مذهب الشافعى وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا فى حق من قتل فى الحرم أو قتل ذا محرم، وقال حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ قال: فى الشهور كلها.

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ الآية. ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ فى كلهن ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراما وعظم حرماتهن وجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم.

وقال قتادة فى قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ إن الظلم فى الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرًا من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيما ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء، وقال إن الله اصطفى صفايا من خلقه. اصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس رسلا واصطفى من الكلام ذكره، واصطفي من الأرض المساجد. واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم واصطفى من الأيام يوم الجمعة واصطفى من الليالى ليلة القدر فعظموا ما عظم الله. فإنما يُعَظِّم الأمور ما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل وقال الثورى عن قيس بن مسلم عن الحسن عن محمد بن الحنفية بأن لا تحرموهن كحرمتهن.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أى لا تجعلوا حرامها حلالا ولا حلالها حراما كما فعل أهل الشرك فإنما النسىء الذى كانوا يصنعون من ذلك زيادة فى الكفر ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية [التوبة: ٣٧]، وهذا القول اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ أى جميعكم ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ أى جميعهم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وقد اختلف العلماء فى تحريم ابتداء القتال فى الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم؟ على قولين: (أحدهما) وهو الأشهر أنه منسوخ لأنه تعالى قال ههنا ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ وأمر بقتال المشركين، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمرًا عاما فلو كان محرما فى الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف فى شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت فى الصحيحين أنه خرج إلى هوازن فى شوال فلما كسرهم واستفاء أموالهم ورجع فلُّهم فلجئوا إلى الطائف عمد إلى الطائف فحاصرهم أربعين يوما وانصرف ولم يفتتحها فثبت أنه

حاصر فى الشهر الحرام والقول الآخر أن ابتداء القتال فى الشهر الحرام حرام وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾[المائدة: ٢] وقال: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الآية[البقرة: ١٩٤] ، وقال ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية[التوبة: ٥] ، وقد تقدم أنها الأربعة المقررة فى كل سنة لا أشهر التسيير على أحد القولين. وأما قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله وأنه حكم مستأنف ويكون من باب التهييج والتحضيض أى كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضًا لهم إذا حاربتموهم وقاتلوهم بنظير مايفعلون، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين فى الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾[البقرة: ١٩٤] وقال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾[البقرة: ١٩١] الآية، وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام فإنه من تتمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف فإنهم هم الذين ابتدءوا القتال وجمعوا الرجال ودعوا إلى الحرب والنزال فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريبًا من أربعين يومًا، وكان ابتداؤه فى شهر حلال ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياما ثم قفل عنهم لأنه يغتفر فى الدوام ما لا يغتفر فى الابتداء، وهذا أمر مقرر وله نظائر كثيرة والله أعلم، ولنذكر الأحاديث الواردة فى ذلك وقد حررنا ذلك فى السيرة والله أعلم.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم فى شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله ، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة فى التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم وتأخيره إلى صفر فيحلون الشهر الحرام ويحرمون الشهر الحلال ليواطئوا عدة الأشهر الأربعة كما قال شاعرهم وهو عمير بن قيس المعروف بحذل الطعان:

لقد علمتْ معدّ أن قومى ... كرام الناس إن لهمْ كراما
ألسنا الناسئين على معدّ ... شهور الحل نجعلها حراما
فأى الناس لم ندرك بوتر ... وأى الناس لم نسلك لجاما

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ قال النسىء أن جنادة بن عوف بن أمية الكنانى كان يوافى الموسم فى كل عام وكان يكنى أبا ثمامة فينادى ألا إن أبا

ثمامة لا يحاب ولا يعاب ألا وإن صفر العام الأول العام حلال فيحله للناس فيحرم صفرًا عاما ويحرم المحرم عاما فذلك قول الله ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وقوله ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ يقول: يتركون المحرم عاما وعاما يحرمونه، وروى العوفى عن ابن عباس نحوه، وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول: يا أيها الناس: إنى لا أعاب ولا أحاب ولا مرد لما أقول، إنا قد حرمنا المحرم وأخرنا صفر. ثم يجىء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ويقول إنا قد حرمنا صفرًا وأخرناالمحرم فهو قوله ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قال يعنى الأربعة فيحلوا ما حرم الله بتأخير هذا الشهر الحرام، وروى عن أبى وائل والضحاك وقتادة نحو هذا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ الآية. قال هذا رجل من بنى كنانة يقال له القلمس وكان فى الجاهلية وكانوا فى الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض فى الشهر الحرام يلقى الرجل قاتل أبيه ولا يمد إليه يده، فلما كان هو قال اخرجوا بنا قالوا له هذا المحرم قال ننسئه العام هما العام صفران، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما محرمين، قال ففعل ذلك فلما كان عام قابل قال لا تغزوا فى صفر حرموه مع المحرم هما محرمان، فهذه صفة غريبة فى النسىء وفيها نظر لأنهم فى عام إنما يحرمون على هذا ثلاثة أشهر فقط وفى العام الذى يليه يحرمون خمسة أشهر فأين هذا من قوله تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ وقد روى عن مجاهد صفة أخرى غريبة أيضًا فقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ الآية، قال فرض الله عز وجل الحج فى ذى الحجة، قال: وكان المشركون يسمون الأشهر: ذا الحجة والمحرم وصفر، وربيع الأول وربيع، وجمادى، وجمادى، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوّالاً، وذا القعدة، وذا الحجة يحجون فيه مرة أخرى، ثم يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه ثم يعودون فيسمون صفرًا صفرًا، ثم يسمون رجبًا جمادى الآخرة، ثم يسمون شعبان رمضان، ثم يسمون شوالا رمضان، ثم يسمون ذا القعدة شوالاً، ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة، ثم يسمون المحرم ذا الحجة فيحجون فيه واسمه عندهم ذو الحجة.

ثم عادوا بمثل هذه الصفة فكانوا يحجون فى كل عام شهرين حتى إذا وافق حجة أبى بكر الآخر من العامين فى ذى القعدة، ثم حج النبى ﷺ حجته التى حج فوافق ذا الحجة فذلك حين يقول النبى ﷺ فى خطبته: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» وهذا الذى قاله مجاهد فيه نظر أيضًا وكيف تصح حجة أبى بكر وقد وقعت فى ذى القعدة وأنى هذا؟.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية [التوبة: ٣] وإنما نودى بذلك فى حجة أبى بكر فلو لم تكن فى ذى الحجة لما قال تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: ٣] ولا يلزم من فعلهم النسىء هذا الذى ذكره من دوران السنة عليهم وحجهم فى كل شهر عامين فإن النسىء حاصل بدون هذا فإنهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عاما يحرمون عوضه صفرًا وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها ثم فى السنة الثانية يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه وبعده صفر وربيع وربيع إلى آخرها فـ ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أى فى تحريم أربعة أشهر من السنة إلا

أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم وتارة ينسئونه إلى صفر أى يؤخرونه وقد قدمنا الكلام على قوله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم ثلاث متوالية: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر» أي إن الأمر فى عدة الشهور وتحريم ما هو محرم منها على ما سبق فى كتاب الله من العدد والتوالى لا كما تعتمده جهلة العرب من فصلهم تحريم بعضها بالنسىء عن بعض والله أعلم وقال ابن أبى حاتم [1]: حدثنا صالح بن بشر بن سلمة الطبرانى حدثنا مكى بن إبراهيم حدثنا موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنه قال: وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فاجتمع إليه من شاء الله من المسلمين فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال: «وإنما النسىء من الشيطان زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عامًا» فكانوا يحرمون المحرم عاما ويستحلون صفر ويستحلون المحرم وهو النسىء.

وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا فى كتاب السيرة كلاما جيدًا مفيدًا حسنًا فقال: كان أول من نسأ الشهور على العرب فأحل منها ما حرم الله وحرم منها ما أحل الله عز وجل القلمس وهو حذيفة بن عبد فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان: ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد ثم من بعد عباد ابنه قلع بن عباد ثم ابنه أمية بن قلع ثم ابنه عوف بن أمية ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف وكان آخرهم وعليه قام الإسلام فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فقام فيهم خطيبًا فحرم رجبًا وذا القعدة وذا الحجة ويحل المحرم عاما ويجعل مكانه صفر ويحرمه عامًا ليواطىء عدة ما حرم الله فيحل ما حرم الله يعنى ويحرم ما أحل الله. والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

هذا شروع فى عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال فى شدة الحر وحمارّة القيظ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى إذا دعيتم إلى الجهاد فى سبيل الله ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أى تكاسلتم وملتم إلى المقام فى الدعة والخفض وطيب الثمار ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾؟ أى ما لكم فعلتم هكذا أرضى منكم بالدنيا بدلا من الآخرة؟ ثم زهد تبارك وتعالى فى الدنيا، ورغب فى الآخرة فقال ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

كما قال الإمام أحمد [2]: حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا حدثنا إسماعيل بن أبى خالد عن قيس

---

(١) ضعيف: تفسير ابن أبي حاتم (٦/١٠٠١٩)، فيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف.
(٢) صحيح: المسند (١٧٥٤٧)، (١٧٥٥٣).

عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع؟» وأشار بالسبابة انفرد بإخراجه مسلم [١]. وروى ابن أبي حاتم [٢] حدثنا بشر بن مسلم بن عبد الحميد الحمصي بحمص حدثنا الربيع بن روح حدثنا محمد بن خالد الوهبي حدثنا زياد يعني الجصاص عن أبي عثمان قال: قلت: يا أبا هريرة سمعت من إخواني بالبصرة أنك تقول: سمعت نبي الله ﷺ يقول «إن الله يجزي بالحسنة ألف ألف حسنة» قال أبو هريرة: بل سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله يجزي بالحسنة ألفي ألف حسنة» ثم تلا هذه الآية ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فالدنيا ما مضى منها وما بقي منها عند الله قليل. وقال الثوري عن الأعمش في الآية ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: كزاد الراكب.

وقال عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة. قال: ائتوني بكفني الذي أكفن فيه أنظر إليه فلما وضع بين يديه نظر إليه فقال: أما لي من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول أف لك من دار إن كان كثيرك لقليلاً، وإن كان قليلك لقصيرًا، وإن كنا منك لفي غرور. ثم توعد تعالى على ترك الجهاد فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حيًا من العرب فتثاقلوا عنه فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم، ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي لنصرة نبيه وإقامة دينه كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾[محمد: ٣٨] ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ أي ولا تضروا الله شيئًا بتوليكم عن الجهاد، ونكولكم وتثاقلكم عنه ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم، وقد قيل إن هذه الآية وقوله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾[التوبة: ٤١] وقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ١٢٠] إنهن منسوخات بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾[التوبة: ١٢٢] روى هذا عن ابن عباس وعكرمة والحسن، وزيد بن أسلم ورده ابن جرير وقال: إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد فتعين عليهم ذلك فلو تركوه لعوقبوا عليه وهذا له اتجاه والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي تنصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ أي عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هاربًا بصحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ثم يسيرا نحو المدينة فجعل أبو بكر رضي الله عنه يجزع أن يطلع عليهم أحد فيخلص إلى رسول الله ﷺ منهم أذى فجعل النبي ﷺ يسكنه ويثبته ويقول: «يا أبا بكر ما

(١) مسلم برقم (٢٨٥٨).
(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٠٠٣٠).

ظنك باثنين الله ثالثهما» كما قال الإمام أحمد [١] حدثنا عفان حدثنا همام أنبأنا ثابت عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبى ﷺ ونحن فى الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال: فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما» أخرجاه فى الصحيحين [٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ أى تأييده ونصره عليه أى على الرسول ﷺ فى أشهر القولين وقيل على أبى بكر، وروى عن ابن عباس وغيره قالوا: لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينة وهذا لا ينافى تجدد سكينة خاصة بتلك الحال ولهذا قال: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي: الملائكة ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ﴾.

قال ابن عباس يعنى بكلمة الذين كفروا الشرك وكلمة الله هى لا إله إلا الله. وفى الصحيحين [٣] عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أى فى انتقامه وانتصاره، منيع الجناب لا يضام من لاذ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه ﴿حَكِيمٌ﴾ فى أقواله وأفعاله.

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قال سفيان الثورى عن أبيه عن أبى الضحى مسلم بن صبيح: هذه الآية ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أول ما نزل من سورة براءة وقال معتمر بن سليمان عن أبيه قال: زعم حضرمى أنه ذكر له أن ناسًا كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلا وكبيرًا فيقول: إنى لا آثم، فأنزل الله ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ الآية، أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب وحتم على المؤمنين فى الخروج معه على كل حال فى المنشط والمكره والعسر واليسر فقال ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وقال على بن زيد عن أنس عن أبى طلحة: كهولا وشبابًا ما أسمع الله عذر أحد ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل، وفى رواية قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فقال أرى ربنا استنفرنا شيوخًا وشبانًا جهزونى يا بنى، فقال بنوه يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ومع أبى بكر حتى مات ومع عمر حتى مات فنحن نغزو عنك فأبى فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه بها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه فيها وهكذا روى عن ابن عباس وعكرمة وأبى صالح والحسن البصرى وشمر بن عطية ومقاتل بن حيان والشعبى وزيد بن أسلم أنهم قالوا فى تفسير هذه الآية ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قالوا: كهولا وشبانًا وكذا قال عكرمة والضحاك ومقاتل بن حيان وغيرواحد، وقال مجاهد شبانًا وشيوخًا وأغنياء ومساكين وكذا قال أبو صالح وغيره وقال الحكم بن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل، وقال

(١) صحيح: المسند (١٢).
(٢) البخاري (٣٦٥٣)، مسلم (٢٣٨١).
(٣) البخاري (٢٨١٠)، مسلم (١٩٠٤).

العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول انفروا نشاطًا وغير نشاط، وكذا قال قتادة، وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قالوا فإن فينا الثقيل، وذا الحاجة والضيعة والشغل والمتيسر به أمره فأنزل الله وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: على ما كان منهم، وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى أيضًا فى العسر واليسر وهذا كله من مقتضيات العموم فى الآية وهذا اختيار ابن جرير.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعى: إذا كان النفير إلى دروب الروم نفر الناس إليها خفافًا وركبانًا وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافًا وثقالا وركبانًا ومشاة وهذا تفصيل فى المسألة وقد روى عن ابن عباس ومحمد بن كعب وعطاء الخراسانى وغيرهم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾[التوبة: ١٢٢] وسيأتى الكلام على ذلك إن شاء الله، وقال السدى قوله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول غنيًا وفقيرًا وقويًا وضعيفًا فجاءه رجل يومئذ زعموا أنه المقداد وكان عظيما سمينًا فشكا إليه وسأله أن يأذن له فأبى فنزلت يومئذ ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس فنسخها الله فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[التوبة: ٩١].

وقال ابن جرير [(١)]: حدثنى يعقوب حدثنا ابن علية حدثنا أيوب عن محمد قال شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدرًا ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا وهو في آخرين إلا عاما واحدًا قال وكان أبو أيوب يقول: قال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فلا أجدنى إلا خفيفًا أو ثقيلًا.

وقال ابن جرير [(٢)]: حدثنى سعيد بن عمرو السكونى حدثنا بقية حدثنا حرير حدثنى عبد الرحمن بن ميسرة حدثنى أبو راشد الحبراني قال: وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالسًا على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص وقد فضل عنها من عِظَمِه يريد الغزو فقلت: له قد أعذر الله إليك فقال: أتت علينا سورة البحوث ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾

وبه قال ابن جرير: حدثنى حيان بن زيد الشرعبى قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان واليًا على حمص قبل الأفسوس إلى الجراجمة فلقيت شيخًا كبيرًا هِمًّا قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبلت إليه فقلت يا عم لقد أعذر الله إليك قال فرفع حاجبيه فقال يا ابن أخى استنفرنا الله خفافًا وثقالا ألا إنه من يحبه الله يبتليه ثم يعيده الله فيبقيه وإنما يبتلى الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا الله عز وجل. ثم رغب تعالى فى النفقة فى سبيله وبذل المهج فى مرضاته ومرضاة رسوله فقال: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى هذا خير لكم فى الدنيا والآخرة لأنكم تغرمون فى النفقة قليلا فيغنمكم الله أموال عدوكم فى الدنيا مع ما يدخر لكم من الكرامة فى الآخرة كما قال النبى ﷺ: «تكفل الله للمجاهد فى سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرده إلى منزله نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة»[(٣)] ولهذا قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ

(١) تفسير الطبري (١٠/١٣٩).
(٢) تفسير الطبري (١٠/١٣٩- ١٤٠).
(٣) البخاري (٧٤٦٣)، مسلم (١٨٧٦).

يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد (١) حدثنا محمد بن أبى عدى عن حميد عن أنس أنّ رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم» قال: أجدنى كارهًا قال: «أسلم وإن كنت كارهًا».

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى موبخًا للذين تخلفوا عن النبى ﷺ فى غزوة تبوك وقعدوا عن النبي ﷺ بعدما استأذنوه فى ذلك مظهرين أنهم ذوو أعذار ولم يكونوا كذلك فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾.

قال ابن عباس: غنيمة قريبة ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أى قريبًا أيضًا ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ أى لكانوا جاءوا معك لذلك ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أى المسافة إلى الشام ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ أى لكم إذا رجعتم إليهم ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: لو لم تكن لنا أعذار لخرجنا معكم قال الله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قال ابن أبي حاتم (٢): حدثنا أبى حدثنا أبو حصين بن سليمان الرازى حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة فقال ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ وكذا قال مورق العجلى وغيره. وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون ثم أنزل التى فى سورة النور فرخص له فى أن يأذن لهم إن شاء فقال ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ الآية [النور: ٦٢]. وكذا روى عن عطاء الخراسانى، وقال مجاهد: نزلت هذه الآية فى أناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أى فى إبداء الأعذار ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ يقول تعالى هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم فى القعود لتعلم الصادق منهم فى إظهار طاعتك من الكاذب فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه.

ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه فى القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله فقال: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ أى فى القعود عن الغزو ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ لأن أولئك يرون الجهاد قربة ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ أى فى القعود ممن لا عذر له ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أى لا يرجون ثواب الله فى الدار الآخرة على أعمالهم

(١) صحيح: المسند (١١٦٥٠)، قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٣٠٥): رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٠٠٧٥).

﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى شكت فى صحة ما جئتهم به ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أى يتحيرون يقدمون رِجْلاً ويؤخرون أخرى وليست لهم قدم ثابتة فى شىء فهم قوم حيارى هلكى لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً.

ربع الحزب ٢٠

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ أى معك إلى الغزو ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أى لكانوا تأهبوا له ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ أى أبغض أن يخرجوا معكم قدرًا ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أى أخرهم ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أى قدرًا، ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أى لأنهم جبناء مخذولون ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أى ولأسرعوا السير والمشى بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أى مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم فيؤدى إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير. وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أى عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم، وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم بل هذا عام فى جميع الأحوال والمعنى الأول أظهر فى المناسبة بالسياق وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين.

وقال محمد بن إسحاق: كان الذين استأذنوا فيما بلغنى من ذوى الشرف منهم عبد الله بن أبى ابن سلول والجد بن قيس وكانوا أشرافًا فى قومهم فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده وكان فى جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم فقال: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦-٦٨] والآيات فى هذا كثيرة.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى محرضًا لنبيه عليه السلام على المنافقين: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أى لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم فى كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماله مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبى ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربته يهود المدينة

ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال عبد الله بن أبى وأصحابه: هذا أمر قد توجه فدخلوا فى الإسلام ظاهرًا ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى ومن المنافقين من يقول لك: يا محمد ﴿ٱئْذَن لِّى﴾ فى القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ بالخروج معك بسبب الجوارى من نساء الروم. قال الله تعالى: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ أى قد سقطوا فى الفتنة بقولهم هذا كما قال محمد بن إسحاق [1] عن الزهرى ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبى بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو فى جهازه للجد بن قيس أخى بنى سلمة: «هل لك يا جد العام فى جلاد بنى الأصفر؟» فقال: يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى، فو الله لقد عرف قومى ما رجل أشد عجبًا بالنساء منى، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك» ففى الجد بن قيس نزلت هذه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ الآية، أى إن كان إنما يخشى من نساء بنى الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم. وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت فى الجد بن قيس، وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بنى سلمة. وفى الصحيح [2] أن رسول الله ﷺ قال لهم: «من سيدكم يا بنى سلمة؟» قالوا: الجد بن قيس، على أنّا نبخله. فقال رسول الله ﷺ «وأى داء أدوأ من البخل! ولكن سيدكم الفتى الأبيض الجعد بشر بن البراء بن معرور» وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أى لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

يعلم تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعداوة هؤلاء له لأنه مهما أصابه من حسنة أى فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أى قد احترزنا من متابعته من قبل هذا ﴿وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم فى عداوتهم هذه التامة فقال: ﴿قُل﴾ أى لهم ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أى نحن تحت مشيئته وقدره ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ أى سيدنا وملجؤنا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أى ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٠/١٤٨)، عن محمد بن إسحاق به.

(٢) ذكره البخاري معلقًا عقب حديث (٢٥٤٩)، قال الحافظ في الفتح: هو طرف من حديث أخرجه المؤلف في الأدب المفرد.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ أى تنتظرون بنا ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ شهادة أو ظفر بكم قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ أى ننتظر بكم ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أى ننتظر بكم هذا أو هذا إما أن يصيبكم الله بقارعة من عنده أو بأيدينا بسبي أو بقتل ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أى مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو أنهم لا يتقبل منهم ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ أى والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ أى ليس لهم قصد صحيح ولا همة فى العمل ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ نفقة ﴿إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أن الله لا يمل حتى تملوا [1] وإنه طيب لا يقبل إلا طيبًا [2]. فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملا لأنه إنما يتقبل من المتقين.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١] وقال ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦] وقوله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال الحسن البصرى بزكاتها والنفقة منها فى سبيل الله، وقال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة، واختار ابن جرير قول الحسن، وهو القول القوى الحسن، وقوله ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أى ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم. عياذًا بالله من ذلك وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم أنهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾

(١) رواه البخاري (١١٥١)، ومسلم (٧٨٢)، من حديث عائشة.
(٢) رواه مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩)، وأحمد (٨١٤٨)، من حديث أبي هريرة به.

يمينًا مؤكدة ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ أى فى نفس الأمر ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أى فهو الذى حملهم على الحلف ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ أى حصنًا يتحصنون به وحرزًا يتحرزون به ﴿أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ﴾ وهى التى فى الجبال ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ وهو السرب فى الأرض والنفق قال ذلك فى الثلاثة: ابن عباس ومجاهد وقتادة ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أى يسرعون فى ذهابهم عنكم لأنهم إنما يخالطونكم كرهًا لا محبة وودوا أنهم لا يخالطونكم ولكن للضرورة أحكام ولهذا لا يزالون فى هم وحزن وغم لأن الإسلام وأهله لا يزال فى عز ونصر ورفعة، فلهذا كلما سر المسلمون ساءهم ذلك فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين ولهذا قال ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى ﴿وَمِنْهُم﴾ أى ومن المنافقين ﴿مَّن يَلْمِزُكَ﴾ أى يعيب عليك ﴿فِى﴾ قسم ﴿ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ إذا فرقتها ويتهمك فى ذلك وهم المتهمون المأبونون وهم مع هذا لا ينكرون للدين وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ولهذا ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟﴾ من الزكاة ﴿رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أى يغضبون لأنفسهم.

قال ابن جريج: أخبرنى داود بن أبى عاصم قال أتى النبى ﷺ بصدقة فقسمها هاهنا وهاهنا حتى ذهبت قال ووراءه رجل من الأنصار فقال: ما هذا بالعدل فنزلت هذه الآية، وقال قتادة فى قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ يقول: ومنهم من يطعن عليك فى الصدقات، وذكر لنا أن رجلا من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبى ﷺ وهو يقسم ذهبًا وفضة فقال يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت، فقال نبى الله ﷺ: «ويلك فمن ذا الذى يعدل عليك بعدي؟» ثم قال نبى الله: «احذروا هذا وأشباهه فإن فى أمتى أشباه هذا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم فإذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم» وذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول: «والذى نفسى بيده ما أعطيكم شيئا ولا أمنعكموه إنما أنا خازن».

وهذا الذى ذكره قتادة شبيه بما رواه الشيخان [1] من حديث الزهرى عن أبى سلمة عن أبى سعيد فى قصة ذى الخويصرة واسمه حرقوص لما اعترض على النبى ﷺ حين قسم غنائم حنين فقال له: اعدل فإنك لم تعدل فقال: «لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل» ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفيًا: «إنه يخرج من ضئضىء هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء» وذكر بقية الحديث ثم قال تعالى منبهًا لهم على ما هو خير من ذلك لهم فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدبًا عظيما وسرًّا شريفًا حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده وهو قوله: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾، وكذلك الرغبة إلى الله وحده فى التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتثال

(١) البخاري برقم (٣٦١٠)، مسلم برقم (١٠٦٤) بنحوه.

أوامره وترك زواجره وتصديق أخباره والاقتفاء بآثاره.

نصف الحزب ٢٠

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبى ﷺ ولمزهم إياه فى قسم الصدقات بيَّن تعالى أنه هو الذى قسمها وبين حكمها وتولى أمرها بنفسه ولم يكل قسمها إلى أحد غيره فجزَّأها لهؤلاء المذكورين كما رواه الإمام أبو داود فى سننه [١] من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم - وفيه ضعف عن زياد بن نعيم عن زياد بن الحارث الصدائى رضى الله عنه قال: أتيت النبى ﷺ فبايعته فأتى رجل فقال: أعطنى من الصدقة فقال له: «إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك» وقد اختلف العلماء فى هذه الأصناف الثمانية هل يجب استيعاب الدفع لها أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين:

(أحدهما) أنه يجب ذلك وهو قول الشافعى وجماعة.

(والثانى) أنه لا يجب استيعابها بل يجوز الدفع إلى واحد منها ويعطى جميع الصدقة مع وجود الباقين وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف منهم عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران، قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم، وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف ههنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعاب الإعطاء. ولوجوه الحجاج والمآخذ مكان غير هذا والله أعلم، وإنما قدم الفقراء ههنا على البقية لأنهم أحوج من البقية على المشهور ولشدة فاقتهم وحاجتهم، وعند أبى حنيفة أن المسكين أسوأ حالا من الفقير وهو كما قال.

قال ابن جرير: حدثنى يعقوب حدثنا ابن علية أنبأنا ابن عون عن محمد قال: قال عمر رضى الله عنه: الفقير ليس بالذى لا مال له، ولكن الفقير الأخلق الكسب قال ابن علية: الأخلق المُحارَف عندنا، والجمهور على خلافه وروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصرى وابن زيد. واختاره ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذى لا يسأل الناس شيئًا والمسكين هو الذى يسأل ويطوف يتبع الناس وقال قتادة: الفقير من به زمانة والمسكين الصحيح الجسم، وقال الثورى عن منصور عن إبراهيم هم فقراء المهاجرين، قال سفيان الثورى يعنى ولا يعطى الأعراب منها شيئًا وكذا روى عن سعيد بن جبير وسعيد بن عبد الرحمن بن أبزى.

وقال عكرمة: ولا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين إنما المساكين أهل الكتاب ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية. فأما الفقراء فعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مِرَّة سوي» رواه أحمد وأبو داود والترمذى [٢]، ولأحمد أيضًا والنسائى وابن ماجه [٣] عن أبى هريرة مثله وعن عبيد الله بن عدى بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبى ﷺ يسألانه من

(١) ضعيف: أبو داود (١٦٣٠)، في إسناده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، وهو ضعيف انظر: ضعيف الجامع رقم (١٦٤٢).

(٢) صحيح: أحمد (٦٤٩٤)، أبو داود (١٦٣٤)، الترمذي (٦٥٢).

(٣) صحيح: المسند (٨٨١٨)، والنسائي (٢٥٩٧)، وابن ماجه (١٨٣٩).

الصدقة فقلَّب فيهما البصر فرآهما جلدين فقال: «إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها لغنى ولا لقوى مكتسب» رواه أحمد وأبو داود والنسائى [١] بإسناد جيد قوى وقال ابن أبى حاتم فى كتاب الجرح والتعديل: أبو بكر العبسى قال قرأ عمر رضى الله عنه ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ قال: هم أهل الكتاب، روى عنه عمر بن نافع سمعت أبى يقول ذلك قلت وهذا قول غريب جدًّا بتقدير صحة الإسناد فإن أبا بكر هذا وإن لم ينص أبو حاتم على جهالته لكنه فى حكم المجهول، وأما المساكين فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطوَّاف الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان» قالوا فمن المسكين يا رسول الله؟ قال «الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئًا» رواه الشيخان البخاري ومسلم [٢]. وأما العاملون عليها فهم الجباة والسعاة يستحقون منه قسطا على ذلك ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة لما ثبت فى صحيح مسلم [٣] عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث، أنه انطلق هو والفضل بن العباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة فقال: «إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، إنما هى أوساخ الناس».

وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام منهم من يعطَى ليسلم، كما أعطى النبى ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهدها مشركًا، قال: فلم يزل يعطينى حتى صار أحب الناس إلى بعد أن كان أبغض الناس إلى، كما قال الإمام أحمد [٤]: حدثنا زكريا بن عدى أنا ابن المبارك، عن يونس عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية قال: أعطانى رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إلى، فما زال يعطينى حتى صارو إنه لأحب الناس إلى، ورواه مسلم والترمذى [٥] من حديث يونس عن الزهرى به، ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضًا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل، وقال «إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يكبه الله على وجهه فى نار جهنم» [٦]. وفى الصحيحين [٧] عن أبى سعيد أن عليًا بعث إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم بذهيبة فى تربتها من اليمن، فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر، وعلقمة بن علاثة، وزيد الخير، وقال «أتألفهم» ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه، ومنهم من يعطى ليجبى الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد، ومحل تفصيل هذا فى كتب الفروع، والله أعلم.

وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبى ﷺ؟ فيه خلاف، فروى عن عمر وعامر والشعبى وجماعة: أنهم لا يعطون بعده لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ومكن لهم فى البلاد، وأذل لهم رقاب العباد، وقال آخرون: بل يعطون لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم. وأما الرقاب فروى عن الحسن البصرى ومقاتل بن حيان

(١) صحيح: أحمد (١٧٥١١)، وأبو داود (١٦٣٣)، والنسائي (٢٥٩٨).
(٢) البخاري برقم (١٤٧٩)، مسلم برقم (١٠٣٩).
(٣) مسلم برقم (١٠٧٢).
(٤) صحيح: المسند (١٤٨٨٠).
(٥) مسلم (٢٣١٣)، والترمذي (٦٦٦).
(٦) البخاري (٢٧)، (١٤٧٨)، ومسلم (١٥٠).
(٧) البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعي والزهري وابن زيد أنهم المكاتبون، وروى عن أبي موسى الأشعري نحوه، وهو قول الشافعي والليث رضي الله عنهما.

وقال ابن عباس والحسن: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل ومالك وإسحاق، أي أن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب أو يشترى رقبة فيعتقها استقلالاً، وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضوًا من معتقها حتى الفرج بالفرج، وما ذاك إلا لأن الجزاء من جنس العمل ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٩] وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف» رواه الإمام أحمد وأهل السنن[١] إلا أبا داود، وفي المسند[٢] عن البراء بن عازب قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله دلني على عمل يقربني من الجنة ويباعدني من النار. فقال: «أعتق النسمة وفك الرقبة» فقال: يا رسول الله أو ليسا واحدًا؟ قال: «لا، عتق النسمة أن تفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها» وأما الغارمون فهم أقسام فمنهم: من تحمل حمالة أو ضمن دينًا فلزمه فأجحف بماله أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب فهؤلاء يدفع إليهم، والأصل في هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها» قال: ثم قال: «يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش - أو قال سدادًا من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه فيقولون لقد أصابت فلانًا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش - أو قال سدادًا من عيش - فما سواهن من المسألة سحت يأكلها صاحبها سحتًا» رواه مسلم[٣]، وعن أبي سعيد قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه، فقال النبي ﷺ: «تصدقوا عليه» فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي ﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك» رواه مسلم[٤].

وقال الإمام أحمد[٥]: حدثنا عبد الصمد، أنبأنا صدقة بن موسى عن أبي عمران الجوني عن قيس بن يزيد عن قاضي المصرين عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه فيقول: يا ابن آدم فيم أخذت هذا الدين وفيم ضيعت حقوق الناس؟ فيقول: يا رب إنك تعلم أني أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم أضيع ولكن أتى على يدي إما حرق وإما سرق وإما وضيعة. فيقول الله صدق عبدي أنا أحق من قضى عنك اليوم، فيدعو الله بشيء فيضعه في كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته، فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته» وأما

(١) حسن: المسند (٩٣٤٨)، والترمذي (١٦٥٥)، والنسائي (٣١٢٠)، وابن ماجه (٢٥١٨).
(٢) صحيح: المسند (١٨١٧٣).
(٣) مسلم (١٠٤٤)، وأبو داود (١٦٤٠)، والنسائي (٢٥٧٩، ٢٥٩١).
(٤) مسلم برقم (١٥٥٦).
(٥) حسن: المسند (١٧١٠)، قال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٣٣): رواه أحمد، والبزار، والطبراني في الكبير وفيه صدقة الدقيقي، وثقه مسلم بن إبراهيم وضعفه جماعة.

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم فى الديوان، وعند الإمام أحمد والحسن وإسحاق والحج من سبيل الله للحديث، وكذلك ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهوالمسافر المجتاز فى بلد ليس معه شىء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال، وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شىء، فيعطى من مال الزكاة كفايته فى ذهابه وإيابه. والدليل على ذلك الآية وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه [١] من حديث معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغنى إلا لخمسة: العامل عليها أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز فى سبيل الله، أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغني» وقد رواه السفيانان عن زيد بن أسلم عن عطاء مرسلاً، ولأبى داود [٢] عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغنى إلا فى سبيل الله وابن السبيل أو جار فقير فيهدى لك أو يدعوك» وقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي حكما مقدرًا بتقدير الله وفرضه قسمته ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله ويقوله ويشرعه ويحكم به، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أى من قال له شيئًا صدقه ومن حدثه فينا صدقه، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا. روى معناه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أى هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى ويصدق المؤمنين ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ أى وهو حجة على الكافرين ولهذا قال ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾

قال قتادة فى قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ الآية. قال ذكر لنا أن رجلا من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا وإن كان ما يقول محمد حقًّا، لهم شر من الحمير. قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله ما يقول محمد لحق ولأنت أشر من الحمار، قال: فسعى بها الرجل إلى النبى ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال «ما حملك على الذى قلت؟» فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب، فأنزل الله - عز وجل - ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾

(١) صحيح: أبو داود (١٦٣٥)، وابن ماجه (١٨٤١).
(٢) أبو داود (١٦٣٧)، وأحمد في مسنده (١١٥١٩).

الآية، أى ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله عز وجل أى شاقه وحاربه وخالفه، وكان فى حد والله ورسوله فى حد و﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَآ﴾ أى مهانًا معذبًا، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أى وهذا هو الذل العظيم والشقاء الكبير.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قال مجاهد: يقولون القول بينهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفشى علينا سرنا هذا، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۖ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨]، وقال فى هذه الآية: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أى إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩-٣٠]، ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة الفاضحة فاضحة المنافقين.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قال أبو معشر المدينى: عن محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونًا وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء. فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب. فقال: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ - إلى قوله - ﴿كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ وإن رجليه لتنسفان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بنِسْعَة رسول الله ﷺ. وقال عبد الله بن وهب: أخبرنى هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل فى غزوة تبوك فى مجلس يومًا: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنًا ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل فى المسجد: كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن، قال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة، وهو يقول يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ الآية. وقد رواه الليث عن هشام بن سعيد بنحو من هذا.

وقال ابن إسحاق وقد كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بنى أمية بن زيد بن عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له مخشن بن حمير، يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنا بكم غدًا مقرنين فى الحبال، إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين فقال مخشن بن حمير: والله لوددت أني أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإننا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه، وقال رسول الله ﷺ فيما بلغنى لعمار بن ياسر «أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا

فإن أنكروا فقل بلى قلتم كذا وكذا» فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه فقال وديعة بن ثابت ورسول الله واقف على راحلته، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب فنزلت الآية فقال مخشن بن حمير: يا رسول الله قعد بى اسمى واسم أبى فكان الذى عفى عنه فى هذه الآية مخشن بن حمير فتسمى عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيدًا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر.

وقال قتادة ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ قال: فبينما النبى ﷺ فى غزوة تبوك وركْبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على ما قالوا، فقال «على بهؤلاء النفر» فدعاهم فقال «قلتم كذا وكذا» فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب.

وقال عكرمة فى تفسير هذه الآية: كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول اللهم إنى أسمع آية أنا أعنى بها تقشعر منها الجلود وتجلب منها القلوب، اللهم فاجعل وفاتى قتلا فى سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت.

قال: فأصيب يوم اليمامة فما من أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره. وقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أى بهذا المقال الذى استهزأتم به ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ أى لا يعفى عن جميعكم ولا بد من عذاب بعضكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أى مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى منكرًا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أى عن الإنفاق فى سبيل الله، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أى نسوا ذكر الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أى عاملهم معاملة من نسيهم كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٣٤] ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى الخارجون عن طريق الحق الداخلون فى طريق الضلالة.

وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أى على هذا الصنيع الذى ذكر عنهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى ماكثين فيها مخلدين هم والكفار ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أى كفايتهم فى العذاب ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أى طردهم وأبعدهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى فى الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم وقد كانوا

أشهد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاً، وقوله ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ قال الحسن البصرى: بدينهم، وقوله ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ أي فى الكذب والباطل ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أى بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب.

قال ابن جريج [1] عن عمرو بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية، قال ابن عباس: ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم لا أعلم إلا أنه قال: «والذى نفسى بيده لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه» قال ابن جريج [2]: وأخبرنى زياد بن سعد عن محمد بن زيد بن مهاجر عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع وباعًا بباع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا: ومن هم يا رسول الله، أهل الكتاب؟ قال: «فمه» وهكذا رواه أبو معبشر عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ: فذكره، وزاد قال: أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم القرآن ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾، قال أبو هريرة: الخلاق: الدين ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ قالوا يا رسول الله كما صنعت فارس والروم؟ قال «فهل الناس إلا هم؟» وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح [3].

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالى واعظًا لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام، ﴿وَعَادٍ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هودًا عليه السلام، ﴿وَثَمُودَ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحًا عليه السلام وعقروا الناقة، ﴿وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم وأهلك ملكهم النمرود بن كنعان بن كوش الكنعانى لعنه الله، ﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ قوم لوط وقد كانوا يسكنون فى مدائن، وقال فى الآية الأخرى ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾[النجم: ٥٣] أى الأمة المؤتفكة وقيل أم قراهم، وهى سدوم، والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبى الله لوطًا عليه السلام وإتيانهم الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين، ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أى بالحجج والدلائل القاطعات، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أى بإهلاكه إياهم لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟

(١) صحيح: رواه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٧٦). (٢) رواه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٧٦).
(٣) رواه البخاري (٧٣١٩)، من حديث سعيد المقبرى عن أبي هريرة.

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أى بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أى يتناصرون ويتعاضدون كما جاء فى الصحيح [١] «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» وشبك بين أصابعه، وفى الصحيح [٢] أيضًا «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أى يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى فيما أمر أو ترك ما عنه زجر ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أى سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أى: عزيز ومن أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿حَكِيمٌ﴾ فى قسمته هذه الصفات لهؤلاء وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة فى جميع ما يفعله تبارك وتعالى.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم فى ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى ماكثين فيها أبدًا ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أى حسنة البناء طيبة القرار، كما جاء فى الصحيحين [٣] من حديث أبى عمران الجونى عن أبى بكر بن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن» وبه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلا فى السماء! للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضًا»، وأخرجاه [٤] فى الصحيحين [٥] أيضًا عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان، فإن حقًا على الله أن يدخله الجنة هاجر فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها» قالوا: يا رسول الله أفلا نخبر الناس؟ قال: «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله بين كل درجتين كما بين

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١)، مسلم (٢٥٨٥)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١)، مسلم (٢٥٨٦)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.
(٣) البخاري برقم (٤٨٧٨)، مسلم (١٨٠).
(٤) البخاري برقم (٤٨٧٩)، مسلم (٣٨٣٨).
(٥) البخاري (٢٧٩٠)، ولم أجده في مسلم.

السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن» وعند الطبرانى والترمذى وابن ماجه [١] من رواية زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن معاذ بن جبل رضى الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول فذكر مثله.

وللترمذى [٢] عن عبادة بن الصامت مثله. وعن أبى حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون الغرف فى الجنة كما تراءون الكوكب فى السماء» أخرجاه فى الصحيحين [٣]، ثم ليعلم أن أعلى منزلة فى الجنة مكان يقال له الوسيلة لقربه من العرش وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة، كما قال الإمام أحمد [٤]: حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن ليث عن كعب عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صليتم على فاسألوا الله لى الوسيلة» قيل يا رسول الله وما الوسيلة؟ قال «أعلى درجة فى الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو».

وفى صحيح مسلم [٥] من حديث كعب بن علقمة: عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه سمع النبى ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىَّ فإنه من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله. وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة».

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى [٦]: حدثنا أحمد بن على الأبار، حدثنا الوليد بن عبد الملك الحرانى، حدثنا موسى بن أعين عن ابن أبى ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: سلوا الله لى الوسيلة فإنه لم يسألها لى عبد فى الدنيا إلا كنت له شهيدًا أو شفيعًا يوم القيامة». وفى مسند الإمام أحمد [٧] من حديث سعد أبي مجاهد الطائى عن أبى المدلة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: «لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران. من يدخلها ينعم لا يبأس ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه» وروى عن ابن عمر مرفوعًا نحوه [٨]، وعند الترمذى [٩] من حديث عبد الرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن على رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة لغرفًا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها» فقام أعرابى فقال: يا رسول الله لمن هي؟ فقال: «لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام» ثم قال: حديث غريب ورواه الطبرانى [١٠] من حديث عبد الله بن عمرو وأبى مالك الأشعرى كل منهما عن.

---

(١) صحيح: الطبراني في الكبير (٢٠/ ١٥٧)، برقم (٣٢٧)، والترمذي (٢٥٣)، وابن ماجه (٤٣٣١).
(٢) صحيح: الترمذي (٢٥٣١).
(٣) البخاري برقم (٦٥٥٥)، مسلم (٢٨٣٠).
(٤) صحيح: المسند (٧٥٤٤).
(٥) مسلم برقم (٣٨٤).
(٦) الطبراني في الأوسط (١/ ١٩٨) برقم (٦٣٣).
(٧) حسن لغيره: المسند (٧٩٨٣).
(٨) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٩٧): رواه الطبراني بإسناد حسَّن الترمذي رجاله.
(٩) صحيح لغيره: الترمذي (٥٢٥٦).
(١٠) حديث: أبي مالك الأشعري: الطبراني في الكبير (٣/ ٣٠١)، برقم (٣٤٦٦)، (٣٤٦٧).
حديث عبد الله بن عمرو: قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤٢٠): رواه أحمد ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهم.

النبى ﷺ بنحوه، وكل من الإسنادين جيد حسن، وعنده أن السائل هو أبو مالك الأشعرى، فالله أعلم.

وعن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل مشمر إلى الجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها، هى ورب الكعبة نور يتلألا وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة. وحلل كثيرة، ومقام فى أبد فى دار سليمة، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة فى محلة عالية بهية» قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها، قال: «قولوا إن شاء الله» فقال القوم: إن شاء الله، رواه ابن ماجه [١]. وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أى رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، كما قال الإمام مالك رحمه الله عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون يا رب وأى شىء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدًا» أخرجاه [٢] من حديث مالك، وقال أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملى: حدثنا الفضل الرخامي، حدثنا الفريابى عن سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله عز وجل هل تشتهون شيئًا فأزيدكم؟ قالوا يا ربنا ما خير مما أعطيتنا؟ قال: رضوانى أكبر» [٣] ورواه البزار فى مسنده من حديث الثورى، وقال الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه صفة الجنة: هذا عندى على شرط الصحيح، والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار فى الدار الآخرة، وقد تقدم عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال: بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف: سيف للمشركين ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] وسيف لكفار أهل الكتاب ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] وسيف للمنافقين ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣] وسيف للبغاة ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] وهذا يقتضى أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق وهو اختيار ابن جرير.

(١) حسن: ابن ماجه (٤٣٣٢)، انظر: الأحاديث المختارة (٤/ ١٣٢-١٣٤).

(٢) البخاري (٦٥٤٩)، مسلم (٢٨٢٩).

(٣) صحيح: رواه الحاكم في مستدركه (١/ ١٥٦) برقم (٢٧٦)، من طريق الفريابي به وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وقال ابن مسعود فى قوله تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ قال: بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه فإن لم يستطع فليكفهر فى وجهه. وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم، وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم، وعن مقاتل والربيع مثله، وقال الحسن وقتادة مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم، وقد يقال إنه لا منافاة بين هذه الأقوال لأنه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم. وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ قال قتادة: نزلت فى عبد الله بن أبيّ وذلك أنه اقتتل رجلان جهنى وأنصارى فعلا الجهنى على الأنصارى، فقال عبد الله للأنصار ألا تنصروا أخاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمِّن كلبك يأكلك، وقال ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبى ﷺ فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله فيه هذه الآية، وروى إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن عمه موسى بن عقبة قال: فحدثنى عبد الله بن الفضل أنه سمع أنس بن مالك رضى الله عنه يقول: حزنت على من أصيب بالحرة من قومى فكتب إلى زيد بن أرقم ويلغه شدة حزنى يذكر أنه سمع رسول الله يقول: «اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار» وشك ابن الفضل فى «أبناء أبناء الأنصار» قال ابن الفضل: فسأل أنسًا بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم؟ فقال: هو الذى يقول له رسول الله ﷺ: «أوفى الله له بأُذُنه» وذلك حين سمع رجلا من المنافقين يقول ورسول الله ﷺ يخطب: لئن كان صادقًا فنحن شر من الحمير.

فقال زيد بن أرقم: فهو والله صادق ولأنت شر من الحمار. ثم رفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجحده القائل فأنزل الله هذه الآية تصديقًا لزيد، يعنى قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ الآية، رواه البخارى فى صحيحه [1] عن إسماعيل بن أبى أويس عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة - إلى قوله - هذا الذى أوفى الله له بأُذُنه، ولعل ما بعده من قول موسى بن عقبة، وقد رواه محمد بن فليح عن موسى بن عقبة بإسناده: ثم قال قال ابن شهاب... فذكر ما بعده عن موسى عن ابن شهاب.

والمشهور فى هذه القصة أنها كانت فى غزوة بنى المصطلق فلعل الراوى وهم فى ذكر الآية، وأراد أن يذكر غيرها فذكرها، والله أعلم.

قال الأموى فى مغازيه: حدثنا محمد بن إسحاق عن الزهرى عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن جده قال: لما قدم رسول الله ﷺ أخذنى قومى فقالوا: إنك امرؤ شاعر فإن شئت أن تعتذر إلى رسول الله ﷺ ببعض العلة ثم يكون ذنبًا تستغفر الله منه...، وذكر الحديث بطوله إلى أن قال: وكان ممن تخلف من المنافقين ونزل فيه القرآن منهم ممن كان مع النبى ﷺ الجلاس بن سويد بن الصامت، وكان على أم عمير بن سعد، وكان عمير فى حجره، فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل فى المنافقين قال الجلاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقًا فيما يقول لنحن شر من الحمير. فسمعها عمير بن سعد فقال: والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلى وأحسنهم عندي بلاء

(١) البخاري برقم (٤٩٠٦).

وأعزهم على أن يصله شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك ولئن كتمتها لتهلكنى، ولإحداهما أهون عليَّ من الأخرى، فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجلاس، فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى أتى النبى ﷺ فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد ولقد كذب على، فأنزل الله عز وجل فيه ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ إلى آخر الآية، فوقفه رسول الله ﷺ عليها فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ونزع فأحسن النزوع.

هكذا جاء هذا مدرجًا فى الحديث متصلا به وكأنه والله أعلم من كلام ابن إسحاق نفسه لا من كلام كعب بن مالك، وقال عروة بن الزبير: نزلت هذه الآية فى الجلاس بن سويد بن الصامت، أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء، فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقًّا فنحن أشر من حمرنا هذه التى نحن عليها، فقال مصعب: أما والله يا عدو الله لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت فأتيت النبى ﷺ وخفت أن ينزل فيَّ القرآن أو تصيبنى قارعة أو أن أخلط بخطيئته، فقلت: يا رسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء فقال كذا وكذا ولولا مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبنى قارعة ما أخبرتك، قال: فدعا الجلاس فقال «يا جلاس أقلت الذى قاله مصعب؟» فحلف فأنزل الله ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾، وقال محمد بن إسحاق: كان الذى قال تلك المقالة فيما بلغنى الجلاس بن سويد بن الصامت فرفعها عليه رجل كان فى حجره يقال له عمير بن سعد فأنكرها فحلف بالله ما قالها، فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع وحسنت توبته فيما بلغنى، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير [(١)]: حدثنى أيوب بن إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالسًا فى ظل شجرة فقال: «إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم - بعينى الشيطان - فإذا جاء فلا تكلموه» فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «علام تشتمنى أنت وأصحابك؟» فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله عز وجل ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الآية، وقوله ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ قيل نزلت فى الجلاس بن سويد وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته حين قال لأخبرن رسول الله ﷺ، وقيل فى عبد الله بن أبى، هم بقتل رسول الله ﷺ.

وقال السدى: نزلت فى أناس أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبى وإن لم يرض رسول الله ﷺ وقد ورد أن نفرًا من المنافقين هموا بالفتك بالنبى ﷺ وهو فى غزوة تبوك، فى بعض تلك الليالى فى حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلاً.

قال الضحاك: ففيهم نزلت هذه الآية، وذلك بَيَّن فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقى [(٢)] فى كتاب دلائل النبوة من حديث محمد بن إسحاق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى البخترى عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: كنت آخذًا بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق الناقة أو أنا أسوقه وعمار يقوده حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثنى عشر راكبًا قد اعترضوه فيها، قال فأنبهت رسول الله ﷺ بهم، فصرخ بهم فولوا مدبرين فقال لنا رسول الله ﷺ: «هل عرفتم القوم؟» قلنا: لا يا

(١) **حسن:** تفسير الطبري (١٠/ ١٨٥).

(٢) **صحيح لغيره:** دلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٢٦٠).

رسول الله قد كانوا متلثمين ولكنا قد عرفنا الركاب قال: «هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة وهل تدرون ما أرادوا؟» قلنا: لا، قال: «أرادوا أن يزحموا رسول الله ﷺ فى العقبة فيلقوه منها» قلنا: يا رسول الله أفلا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: «لا، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمدًا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم - ثم قال - اللهم ارمهم بالدبيلة» قلنا: يا رسول الله وما الدبيلة؟ قال: «شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك».

وقال الإمام أحمد رحمه الله [(١)]: حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبى الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر مناديًا فنادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عمارًا وهو يسوق برسول الله ﷺ فأقبل عمار رضى الله عنه يضرب وجوه الرواحل فقال رسول الله ﷺ لحذيفة «قد قد» حتى هبط رسول الله ﷺ فلما هبط نزل ورجع عمار فقال يا عمار: «هل عرفت القوم؟» قال: لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون قال «هل تدرى ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم قال: «أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ - راحلته فيطرحوه» قال: فسأل عمار رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ فقال نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر رجلا فقال: إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر قال فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادى رسول الله ﷺ وما علمنا ما أراد القوم فقال عمار أشهد: أن الاثنى عشر الباقين حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وهكذا روى ابن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة بن الزبير نحو هذا، وأن رسول الله ﷺ أمر أن يمشى الناس فى بطن الوادى وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة، فتبعهم هؤلاء النفر الأرذلون وهم متلثمون فأرادوا سلوك العقبة، فأطلع الله على مرادهم رسول الله ﷺ فأمر حذيفة فرجع إليهم فضرب وجوه رواحلهم ففزعوا ورجعوا مقبوحين، وأعلم رسول الله ﷺ حذيفة وعمارًا بأسمائهم وما كانوا هموا به من الفتك به صلوات الله وسلامه عليه وأمرهما أن يكتما عليهم، وكذا روى يونس بن بكير عن ابن إسحاق، إلا أنه سمى جماعة منهم، فالله أعلم.

وكذا قد حكى فى معجم الطبرانى قاله البيهقى، ويشهد لهذه القصة بالصحة ما رواه مسلم [(٢)]: حدثنا زهير بن حرب حدثنا أبو أحمد الكوفى، حدثنا الوليد بن جميع، حدثنا أبو الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك؟ فقال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثنى عشر منهم حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادى رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم، وقد كان فى حرة فمشى فقال: إن الماء قليل فلا يسبقنى إليه أحد»، فوجد قوما قد سبقوه فلعنهم يومئذ، وما رواه مسلم أيضًا [(٣)] من حديث قتادة عن أبى نضرة عن قيس بن عباد عن عمار بن ياسر قال: أخبرنى حذيفة عن النبى ﷺ أنه قال: «فى أصحابى اثنا عشر منافقًا لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل

(١) صحيح: المسند (٢٣٢٨٠).
(٢) مسلم برقم (٢٧٧٩).
(٣) مسلم برقم (٢٧٧٩).

فى سم الخياط : ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة سراج من نار تظهر بين أكتافهم حتى ينجم فى صدورهم» ولهذا كان حذيفة يقال له صاحب السر الذى لا يعلمه غيره أى من تعيين جماعة من المنافقين وهم هؤلاء قد أطلعه عليهم رسول اللهﷺ دون غيره، والله أعلم، وقد ترجم الطبرانى فى مسند حذيفة[١] تسمية أصحاب العقبة، ثم روى عن على بن عبد العزيز عن الزبير بن بكار أنه قال: هم معتب بن قشيرة ووديعة بن ثابت وجد بن عبد الله بن نبتل بن الحارث من بنى عمرو بن عوف والحارث بن يزيد الطائى وأوس بن قيظى والحارث بن سويد وسعد بن زرارة وقيس بن فهد وسويد بن داعس من بنى الحبلى وقيس بن عمرو بن سهل وزيد بن اللصيت وسلالة بن الحمام وهما من بنى قينقاع أظهروا الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أى وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سِفارته، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به كما قال ﷺ للأنصار: «ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى وكنتم متفرقين فألفكم الله بى، وعالة فأغناكم الله بي»[٢] كلما قال شيئًا قالوا الله ورسوله أمنّ. وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ الآية[البروج: ٨]. كما قال عليه السلام: «ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيرًا فأغناه الله»[٣] ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أى وإن يستمروا على طريقهم ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي بالقتل والهم والغم، ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أى بالعذاب والنكال والهوان والصغار ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أى وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم لا يحصل لهم خيرًا ولا يدفع عنهم شرًّا.

ثلاثة أرباع الحزب ٢٠

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين، فما وفى بما قال ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقًا سكن فى قلوبهم إلى يوم يلقون الله عز وجل يوم القيامة عياذًا بالله من ذلك، وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصرى أن سبب نزول هذه الآية الكريمة فى ثعلبة بن حاطب الأنصارى، وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ههنا، وابن أبى حاتم[٤] من حديث معان بن رفاعة عن على بن يزيد عن أبى عبد

(١) الطبراني في الكبير (٣/ ١٦٥-١٦٧).
(٢) البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١)، من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم.
(٣) البخاري (١٤٦٨)، ومسلم (٩٨٣)، من حديث أبي هريرة.
(٤) منكر: رواه الطبراني في تفسيره (١٠/ ١٨٩)، قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٢): رواه الطبراني وفيه على بن يزيد الألهاني وهو متروك.

الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية عن أبى أمامة الباهلى عن ثعلبة بن حاطب الأنصارى، أنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقنى مالاً، قال: فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه» قال: ثم قال مرة أخرى فقال: «أما ترضى أن تكون مثل نبى الله؟ - فو الذى نفسى بيده لو شئت أن تسير الجبال معى ذهبًا وفضةً لسارت» قال: والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه، فقال رسول الله ﷺ «اللهم ارزق ثعلبة مالاً» قال فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل واديًا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، وهى تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار فقال رسول الله ﷺ: «ما فعل ثعلبة؟» فقالوا: يا رسول الله اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة، فأخبروه بأمره، فقال: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة».

وأنزل الله جل ثناؤه ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ الآية [التوبة: ١٠٣]، قال: ونزلت فرائض الصدقة فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة. رجلاً من جهينة ورجلاً من سليم وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين.

وقال لهما: «مرا بثعلبة وبفلان - رجل من بنى سليم - فخذا صدقاتهما» فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية ما أدرى ما هذا؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلى فانطلقا وسمع بهما السلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بهما، فلما رأوها قالوا ما يجب عليك هذا وما نريد أن نأخذ هذا منك، فقال: بلى فخذوها فإن نفسى بذلك طيبة وإنما هى لي، فأخذاها منه فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرا بثعلبة فقال: أرونى كتابكما فنظر فيه فقال ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيى، فانطلقا حتى أتيا النبى ﷺ فلما رآهما قال: «يا ويح ثعلبة» قبل أن يكلمهما ودعا للسلمى بالبركة فأخبراه بالذى صنع ثعلبة والذى صنع السلمى، فأنزل الله عز وجل ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ الآية، قال وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبى ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال: إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك» فجعل يحثو على رأسه التراب، فقال له رسول الله ﷺ «هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني» فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله، فقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئًا، ثم أتى أبا بكر رضى الله عنه حين استخلف فقال قد علمت منزلتى من رسول الله ﷺ وموضعى من الأنصار فاقبل صدقتى، فقال أبو بكر لم يقبلها منك رسول الله ﷺ وأبى أن يقبلها، فقبض أبو بكر ولم يقبلها.

فلما ولى عمر رضى الله عنه أتاه فقال: يا أمير المؤمنين اقبل صدقتى فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وأنا أقبلها منك؟ فقبض ولم يقبلها، فلما ولى عثمان رضى الله عنه أتاه فقال: اقبل صدقتى فقال لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك؟ فلم يقبلها منه فهلك ثعلبة فى خلافة عثمان، وقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ الآية، أى أعقبهم

النفاق فى قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم كما فى الصحيحين [١] عن رسول الله ﷺ أنه قال «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان» وله شواهد كثيرة، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها فإنه أعلم بهم من أنفسهم، لأنه تعالى علام الغيوب أى يعلم كل غيب وشهادة وكل سر ونجوى ويعلم ما ظهر وما بطن.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

وهذه أيضًا من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم فى جميع الأحوال حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا هذا مراء، وإن جاء بشىء يسير قالوا: إن الله لغنى عن صدقة هذا، كما روى البخارى [٢] حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو النعمان البصرى، حدثنا شعبة عن سليمان عن أبى وائل عن أبى مسعود رضى الله عنه قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشىء كثير فقالوا: مَرَاءٍ، وجاء رجل فتصدق بصاع: فقالوا إن الله لغنى عن صدقة هذا. فنزلت ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية. وقد رواه مسلم [٣] أيضًا فى صحيحه من حديث شعبة به.

وقال الإمام أحمد [٤]: حدثنا يزيد ثنا الجريرى عن أبى السليل قال: وقف علينا رجل فى مجلسنا بالبقيع فقال: حدثنى أبى أو عمى أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع وهو يقول: «من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة؟» قال: فحللت من عمامتى لوثا أو لوثين وأنا أريد أن أتصدق بهما، فأدركنى ما يدرك ابن آدم فعقدت عليَّ عمامتى، فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلا أشد منه سوادًا ولا أصغر منه ولا أدمَّ بعين منه ببعير ساقه لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها فقال: يا رسول الله أصدقة؟ قال: «نعم» قال: دونك هذه الناقة، قال فلمزه رجل فقال: هذا يتصدق بهذه فو الله لهى خير منه. قال: فسمعها رسول الله ﷺ فقال «كذبت بل هو خير منك ومنها» ثلاث مرات، ثم قال: «ويل لأصحاب المئين من الإبل» ثلاثًا قالوا إلا من يا رسول الله؟ قال: «إلا من قال بالمال هكذاوهكذا» وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله ثم قال: «قد أفلح المزهد المجهد» ثلاثا. المزهد فى العيش، المجهد فى العبادة، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية قال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء، وقالوا: إن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع [٥].

---

(١) البخاري برقم (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة.
(٢) البخاري برقم (١٤١٥). (٣) مسلم برقم (١٠١٨).
(٤) ضعيف: المسند (١٩٨٤٨) قال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٢١): رواه أحمد وفيه رجل لم يسم.
(٥) رواه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٩٤).

وقال العوفي عن ابن عباس: إن رسول الله خرج إلى الناس يوما فنادى فيهم أن اجمعوا صدقاتكم، فجمع الناس صدقاتهم، ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر، فقال: يا رسول الله هذا صاع من تمر بت ليلتي أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما وأتيتك بالآخر، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات، فسخر منه رجال وقالوا: إن الله ورسوله لغنيان عن هذا وما يصنعان بصاعك من شيء، ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ: هل بقي أحد من أهل الصدقات؟ فقال رسول الله ﷺ: «لم يبق أحد غيرك» فقال له عبد الرحمن بن عوف فإن عندي مائة أوقية من ذهب في الصدقات، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمجنون أنت؟ قال ليس بي جنون، قال أفعلت ما فعلت؟ قال: نعم مالي ثمانية آلاف أما أربعة آلاف فأقرضها ربي وأما أربعة آلاف لي، فقال له رسول الله ﷺ «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت» ولمزه المنافقون فقالوا والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء وهم كاذبون إنما كان به متطوعًا، فأنزل الله عز وجل عذره وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر فقال تعالى في كتابه: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ الآية، وهكذا روى عن مجاهد وغير واحد وقال ابن إسحاق: كان من المطوعين من المؤمنين في الصدقات عبد الرحمن بن عوف تصدق بأربعة آلاف درهم وعاصم بن عدي أخو بني العجلان، وذلك أن رسول الله ﷺ رغب في الصدقة وحض عليها فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف وقام عاصم بن عدي وتصدق بمائة وسق من تمر فلمزوهما وقالوا: ما هذا إلا رياء، وكان الذي تصدق بجهده أبو عقيل أخو بني أنيف الأراشي حليف بني عمرو بن عوف، أتى بصاع من تمر فأفرغه في الصدقة فتضاحكوا به وقالوا: إن الله لغني عن صاع أبي عقيل.

وقال الحافظ أبو بكر البزار [1]: حدثنا طالوت بن عباد، حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثًا» قال فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال يا رسول الله: عندي أربعة آلاف، ألفين أقرضهما ربي وألفين لعيالي، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وبارك لك فيما أمسكت»، وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر فقال يا رسول الله: أصبت صاعين من تمر صاعًا أقرضه لربي وصاعًا لعيالي، قال فلمزه المنافقون وقالوا: ما أعطى الذي أعطى ابن عوف إلا رياء، وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ فأنزل الله ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾، ثم رواه عن أبي كامل عن أبي عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه مرسلا، قال ولم يسنده أحد إلا طالوت.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير [2]: حدثنا ابن وكيع، حدثنا زيد بن الحباب عن موسى بن عبيدة، حدثني خالد بن يسار عن ابن أبي عقيل عن أبيه، قال: بت أجر الجرير على ظهري على صاعين من تمر، فانقلبت بأحدهما إلى أهلي يتبلغون به وجئت بالآخر أتقرب به إلى رسول الله ﷺ فأتيته فأخبرته،

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٢): فيه عمر بن أبي سلمة وثقه العجلي وأبو خيثمة وابن حبان وضعفه شعبة وغيره، وبقية رجالهما ثقات.

(٢) تفسير الطبري (١٠/ ١٩٦).

فقال: «انثره في الصدقة» قال فسخر القوم وقالوا لقد كان الله غنيًا عن صدقة هذا المسكين، فأنزل الله ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ الآيتين، وكذا رواه الطبراني [١] من حديث زيد بن حباب به، وقال: اسم أبي عقيل حباب ويقال عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة، وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين، لأن الجزاء من جنس العمل فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصارًا للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذابًا أليما لأن الجزاء من جنس العمل.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلا للاستغفار وأنه لو استغفر لهم ولو سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، وقد قيل إن السبعين إنما ذكرت حسما لمادة الاستغفار لهم، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها، وقيل بل لها مفهوم كما روى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لما نزلت هذه الآية: أسمع ربي قد رخص لي فيهم فو الله لأستغفرن لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم» فقال الله من شدة غضبه عليهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [٢] الآية [المنافقون: ٦]. وقال الشعبي لما ثقل عبد الله بن أبي انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي قد احتضر فأحب أن تشهده وتصلي عليه فقال له النبي ﷺ: «ما اسمك؟» قال: الحباب بن عبد الله قال: «بل أنت عبد الله بن عبد الله إن الحباب اسم شيطان»، قال: فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق وصلى عليه فقيل له: أتصلي عليه وهو منافق؟ فقال: «إن الله قال ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ ولأستغفرن لهم سبعين و سبعين وسبعين» وكذا روى عن عروة بن الزبير ومجاهد بن جبر وقتادة بن دعامة ورواه ابن جرير [٣] بأسانيده.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يقول تعالى ذاما للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ غزوة تبوك، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟﴾ معه ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟﴾ أي بعضهم لبعض ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار، فلهذا قالوا ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بسبب مخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من الحر بل أشد حرًا من النار، كما قال الإمام مالك [٤] عن أبي

(١) الطبراني في الكبير (٤/ ٤٥) برقم (٣٥٩٨) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٣): بن يسار لم أجد من وثقه ولا من جرحه.
(٢) تفسير ابن جرير (١٠/ ١٩٦).
(٣) تفسير ابن جرير (١٠/ ١٩٩).
(٤) موطأ مالك (١٨٧٢).

الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نار بنى آدم التى يوقدون بها جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم» فقالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية؟ فقال: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا» أخرجاه فى الصحيحين [١] من حديث مالك به، وقال الإمام أحمد [٢]: حدثنا سفيان عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد» وهذا أيضًا إسناده صحيح، وقد روى الإمام أبو عيسى الترمذى وابن ماجه عن عباس الدورى [٣]، وعن يحيى بن أبى بكير عن شريك عن عاصم عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوقد الله على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة، حتى اسودت، فهى سوداء كالليل المظلم» ثم قال الترمذى: لا أعلم أحدًا رفعه غير يحيى، كذا قال، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه، عن إبراهيم بن محمد عن محمد بن الحسين بن مكرم عن عبيد الله بن سعد عن عمه عن شريك وهو ابن عبد الله النخعى به.

وروى أيضًا ابن مردويه، من رواية مبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس قال: تلا رسول الله ﷺ ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] قال: «أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، وألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى اسودت، فهى سوداء كالليل لا يضىء لهبها»، وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى [٤] من حديث تمام بن نجيح، وقد اختلف فيه عن الحسن عن أنس رفعه «لو أن شرارة بالمشرق - أى من نار جهنم - لوجد حرّها مَنْ بالمغرب» وروى الحافظ أبو يعلى [٥]، عن إسحاق بن أبى إسرائيل عن أبى عبيدة الحداد عن هشام بن حسان عن محمد بن شبيب عن جعفر بن أبى وحشية عن سعيد بن جبير عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان فى هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه لاحترق المسجد ومن فيه» غريب، وقال الأعمش عن أبى إسحاق عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لمن له نعلان وشراكان من نار جهنم يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل، لا يرى أن أحدًا من أهل النار أشد عذابًا منه وإنه أهونهم عذابًا» أخرجاه فى الصحيحين [٦] من حديث الأعمش، وقال مسلم أيضًا [٧]: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا يحيى بن أبى بكير، حدثنا زهير بن محمد عن سهيل بن أبى صالح عن النعمان بن أبى عياش عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى

---

(١) البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣). (٢) صحيح: المسند (٧٢٨٣).
(٣) ضعيف: الترمذي (٢٥٩١)، ابن ماجه (٤٣٢٠). انظر: ضعيف الجامع رقم (٢١٢٥).
(٤) الطبراني في الأوسط (٤/ ٨٧)، برقم (٣٦٨١). قال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٥٠): في إسناده احتمال للتحسين.
(٥) حسن: مسند أبي يعلى (١٢/ ٢٢)، برقم (٦٦٧٠) قال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٥٠): إسناده حسن، وفي متنه نكارة.
(٦) البخاري (٦٥٦٢)، مسلم (٢١٣) من حديث النعمان.
تنبيه: ليس في صحيح البخاري عن الأعمش، هو في مسلم فقط.
(٧) مسلم (٢١١).

أهل النار عذابًا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلى دماغه من حرارة نعليه»، وقال الإمام أحمد [١]: حدثنا يحيى عن ابن عجلان، سمعت أبى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال «إن أدنى أهل النار عذابًا رجل يجعل له نعلان يغلى منهما دماغه» وهذا إسناد جيد قوى رجاله على شرط مسلم والله أعلم، والأحاديث والآثار النبوية فى هذا كثيرة، وقال الله تعالى فى كتابه العزيز ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٥-١٦] وقال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩-٢٢] وقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ أى لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول فى سبيل الله فى الحر ليتقوا به من حر جهنم الذى هو أضعاف أضعاف هذا ولكنهم كما قال الآخر:

..... كالمستجير من الرمضاء بالنار

وقال الآخر:

عمرك بالحمية أفنيتَهُ ... مخافةَ البارد والحار

وكان أولى لك أن تتقي ... من المعاصى حذر النار

ثم قال تعالى جل جلاله متوعدًا لهؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس: الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأنفوا بكاء لا ينقطع أبدًا، وكذا قال أبو رزين والحسن وقتادة والربيع بن خثيم وعون العقيلى وزيد بن أسلم.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى [٢]: حدثنا عبد الله بن عبد الصمد بن أبى خداش، حدثنا محمد بن حميد عن ابن المبارك عن عمران بن زيد، حدثنا يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون، فلو أن سفنًا أرخيت فيها لجرت» ورواه ابن ماجه [٣] من حديث الأعمش عن يزيد الرقاشى به.

وقال الحافظ أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا: حدثنا محمد بن عباس، حدثنا حماد الجزرى عن زيد بن رفيع رفعه، قال: إن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زمانًا ثم بكوا القيح زمانًا، قال: فتقول لهم الخزنة يا معشر الأشقياء تركتم البكاء فى الدار المرحوم فيها أهلها فى الدنيا هل تجدون اليوم من تستغيثون به؟ قال: فيرفعون أصواتهم يا أهل الجنة يا معشر الآباء والأمهات والأولاد خرجنا من القبور عطاشًا وكنا طول الموقف عطاشًا ونحن اليوم عطاش، فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فيدعون أربعين سنة لا يجيبهم، ثم يجيبهم ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ فييأسون من كل خير».

---

(١) صحيح: المسند (٩٣٦٩).

(٢) حسن لغيره: مسند أبي يعلى (٧/ ١٦١) برقم (٤١٣٤).

(٣) حسن: ابن ماجه (٤٣٢٤). انظر السلسلة الصحيحة برقم (١٦٧٩).

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى آمرًا لرسوله عليه الصلاة السلام ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ أى ردك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلا ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أى معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ أى تعزيرًا لهم وعقوبة.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[الأنعام: ١١٠]، فإن جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كقوله فى عمرة الحديبية ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾[الفتح: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾ قال ابن عباس: أى الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة، وقال قتادة ﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾ أى مع النساء قال ابن جرير وهذا لا يستقيم لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون ولو أريد النساء لقال فاقعدوا مع الخوالف أو الخالفات، ورجح قول ابن عباس رضى الله عنهما.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين وأن لا يصلى على أحد منهم إذا مات، وأن لا يقوم على قبره يستغفر له أو يدعو له لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه وهذا حكم عام فى كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية فى عبد الله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين كما قال البخارى[1]: حدثنا عبيد بن إسماعيل عن أبى أسامة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال: لما توفى عبد الله بن أبى «جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلى عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلى عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله تصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما خيرنى الله فقال ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[التوبة: ٨٠] وسأزيده على السبعين» قال إنه منافق. قال فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل آية ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾، وكذا رواه مسلم[2] عن أبى بكر بن أبى شيبة عن أبى أسامة حماد بن أسامة به، ثم رواه البخارى[3] عن إبراهيم بن المنذر عن أنس بن عياض عن عبيد الله وهو ابن عمر العمرى به، وقال فصلى عليه وصلينا معه وأنزل الله ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ الآية. وهكذا رواه الإمام أحمد[4] عن يحيى بن سعيد القطان عن عبيد الله به.

---

(١) البخاري (٤٦٧٠).
(٢) مسلم (٢٧٧٤).
(٣) البخاري (٤٦٧٢).
(٤) صحيح: المسند (٤٦٦٦).

وقد روى من حديث عمر بن الخطاب نفسه أيضًا بنحو من هذا، فقال الإمام أحمد [١]: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى عن ابن إسحاق، حدثنى الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس، قال: سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لما توفى عبد الله بن أبى، دُعِىَ رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت فى صدره فقلت يا رسول الله أعلى عدو الله عبد الله بن أبى القائل يوم كذا: كذا وكذا يعدد أيامه؟ قال: ورسول الله ﷺ يتبسم، حتى إذا أكثرت عليه فقال: «أخر عنى يا عمر، إنى خيرت فاخترت، قد قيل لى ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]. لو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت» قال ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه، قال: فعجبت من جرأتى على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم. قال فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾. فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل. وهكذا رواه الترمذى [٢] فى التفسير من حديث محمد بن إسحاق عن الزهرى به، وقال حسن صحيح، ورواه البخارى [٣] عن يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن الزهرى به فذكر مثله، وقال: «أخر عنى يا عمر» فلما أكثرت عليه قال: «إنى خيرت فاخترت ولو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها» قال فصلى عليه رسول الله ثم انصرف، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى نزلت الآيتان من براءة ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ الآية، فعجبت بعد من جرأتى على رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ أعلم.

وقال الإمام أحمد [٤]: حدثنا محمد بن أبى عبيد، حدثنا عبد الملك عن أبى الزبير عن جابر قال: لما مات عبد الله بن أبى أتى ابنه النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إنك إن لم تأته لم نزل نعير بهذا، فأتاه النبى ﷺ فوجده قد أدخل فى حفرته فقال: «أفلا قبل أن تدخلوه؟» فأخرج من حفرته وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه وألبسه قميصه، ورواه النسائى [٥] عن أبى داود الحرانى عن يعلى بن عبيد عن عبدالملك وهو ابن أبى سليمان به، وقال البخارى [٦]: حدثنا عبد الله بن عثمان، أخبرنا ابن عيينة عن عمرو سمع جابر بن عبد الله قال: أتى النبى ﷺ عبد الله بن أبى بعد ما أدخل فى قبره فأمر به فأخرج ووضع على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه والله أعلم.

وقد رواه أيضًا فى غير موضع مع مسلم والنسائى [٧] من غير وجه، عن سفيان بن عيينة به. وقال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده: حدثنا عمرو بن على، حدثنا يحيى، حدثنا مجالد، حدثنا عامر، حدثنا جابر «ح» وحدثنا يوسف بن موسى، حدثنا عبد الرحمن بن مغراء

---

(١) صحيح: المسند (٩٦).
(٢) صحيح: الترمذي (٣٠٩٧).
(٣) البخاري برقم (١٣٦٦)، (٤٦٧١).
(٤) صحيح: المسند (١٤٥٦٨).
تنبيه: في مسند أحمد قال: حدثنا محمد بن بكر فليعلم.
(٥) صحيح: النسائي في الكبرى (٥/ ٤٨١) برقم (٩٦٦٥).
(٦) البخاري (١٢٧٠)، (١٣٥٠)، (٥٧٩٥).
(٧) مسلم (٢٧٧٣)، والنسائي (١٩٠١)، (١٩٠٢)، (٢٠١٩).

الدوسى، حدثنا مجالد عن الشعبى عن جابر قال: لما مات رأس المنافقين قال يحيى بن سعيد بالمدينة فأوصى أن يصلى عليه النبى ﷺ فجاء ابنه إلى النبى ﷺ فقال: إن أبى أوصى أن يكفن في قميصك وهذا الكلام فى حديث عبد الرحمن بن مغراء، قال يحيى فى حديثه: فصلى عليه وألبسه قميصه فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ وزاد عبد الرحمن: وخلع النبى ﷺ قميصه فأعطاه إياه ومشى فصلى عليه وقام على قبره، فأتاه جبريل عليه السلام لما ولى قال ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ وهذا إسناد لا بأس به وما قبله شاهد له.

وقال الإمام أبو جعفر الطبرى [1]: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا حماد بن سلمة عن يزيد الرقاشى عن أنس، أن رسول الله ﷺ أراد أن يصلى على عبد الله بن أبى فأخذ جبريل بثوبه وقال ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ ورواه الحافظ أبو يعلى فى مسنده [2] من حديث يزيد الرقاشى وهو ضعيف.

وقال قتادة أرسل عبد الله بن أبى إلى رسول الله ﷺ وهو مريض فلما دخل عليه قال له النبى ﷺ: «أهلكك حب يهود» قال: يارسول الله إنما أرسلت إليك لتستغفر لى ولم أرسل إليك لتؤنبنى، ثم سأله عبد الله إن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه إياه وصلى عليه وقام على قبره، فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾، وقد ذكر بعض السلف أنه إنما ألبسه قميصه لأن عبد الله بن أبى لما قدم العباس طُلِب له قميصٌ فلم يوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أبى لأنه كان ضخما طويلا ففعل ذلك به رسول الله ﷺ مكافأة له فالله أعلم. ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلى على أحد من المنافقين ولا يقوم على قبره، كما قال الإمام أحمد [3]: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى عن أبيه، حدثنى عبد الله بن أبى قتادة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعى لجنازة سأل عنها، فإن أثنى عليها خيرًا قام فصلى عليها، وإن أثنى عليها غير ذلك قال لأهلها «شأنكم بها» ولم يصل عليها، وكان عمر بن الخطاب لا يصلى على جنازة من جهل حاله حتى يصلى عليها حذيفة بن اليمان لأنه كان يعلم أعيان المنافقين، قد أخبره بهم رسول الله ﷺ، ولهذا كان يقال له صاحب السر الذى لا يعلمه غيره أى من الصحابة.

وقال أبو عبيد فى كتاب الغريب فى حديث عمر: إنه أراد أن يصلى على جنازة رجل فمرزه حذيفة كأنه أراد أن يصده عن الصلاة عليها. ثم حكى عن بعضهم أن المرز بلغة أهل اليمامة هو القرص بأطراف الأصابع، ولما نهى الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذه الصنيع من أكبر القربات فى حق المؤمنين فشرع ذلك، وفى فعله الأجر الجزيل كما ثبت فى الصحاح [4] وغيرها من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان» قيل وما القيراطان؟ قال

---

(١) ضعيف: تفسير الطبري (١٠/ ٢٠٥).

(٢) إسناده ضعيف: مسند أبي يعلى (٧/ ١٤٥) برقم (٤١١٢). في إسنادة يزيد الرقاشي وهو ضعيف.

(٣) صحيح: المسند (٢٢٠٤٩). انظر مجمع الزوائد (٣، ٣، ٤)

(٤) البخاري (٣٣٢٥)، مسلم (٩٤٥).

«أصغرهما مثل أحد» وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات.

فقد قال أبو داود [١]: حدثنا إبراهيم بن موسى الرازى، أخبرنا هشام عن عبد الله بن بحير عن هانىء، وهو أبو سعيد البربرى مولى عثمان بن عفان عن عثمان رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل» انفرد بإخراجه أبو داود رحمه الله.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة ولله الحمد والمنة.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾

يقول تعالى منكرًا وذاما للمتخلفين عن الجهاد الناكلين عنه مع القدرة عليه ووجود السعة والطول. واستأذنوا الرسول فى القعود وقالوا ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود فى البلد مع النساء، وهن الخوالف بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمْنٌ كانوا أكثر الناس كلامًا، كما قال تعالى عنهم فى الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩] أى علت ألسنتهم بالكلام الحدّ القوى فى الأمن، وفى الحرب أجبن شىء، وكما قال الشاعر:

أفى السلم أعيارًا جفاءً وغلظة ... وفى الحرب أشباه النساء العوارك؟

وقال تعالى فى الآية الأخرى ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ الآية [محمد: ٢٠-٢٢].

وقوله ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أى بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول فى سبيل الله ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أى لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

لما ذكر تعالى ذم المنافقين بين ثناءه على المؤمنين وما لهم فى آخرتهم، فقال ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم، وقوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ أى فى الدار الآخرة فى جنات الفردوس والدرجات العلى.

---

(١) صحيح: أبو داود (٣٢٢١).

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

ثم بين تعالى حال ذوى الأعذار فى ترك الجهاد الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة. قال الضحاك عن ابن عباس، إنه كان يقرأ «وَجَآءَ الْمُعَذِرُونَ» بالتخفيف ويقول: هم أهل العذر. وكذا روى عن ابن عيينة عن حميد عن مجاهد سواء، قال ابن إسحاق: وبلغنى أنهم نفر من بنى غفار منهم: خفاف بن إيماء بن رحضة، وهذا القول هو الأظهر فى معنى الآية، لأنه قال بعد هذا ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أى لم يأتوا فيعتذروا، وقال ابن جريج عن مجاهد ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ قال: نفر من بنى غفار جاءوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله، وكذا قال الحسن وقتادة ومحمد بن إسحاق والقول الأول أظهر والله أعلم، لما قدمنا من قوله بعده ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أى وقعد آخرون من الأعراب عن المجىء للاعتذار ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

الجزء ١١ الحزب ٢١

ثم بين تعالى الأعذار التى لا حرج على من قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه وهو الضعف فى التركيب الذى لا يستطيع معه الجلاذ فى الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما، ولهذا بدأ به ومنها ما هو عارض بسبب مرض عنّ له فى بدنه شغله عن الخروج فى سبيل الله أو بسبب فقره لا يقدر على التجهز للحرب، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا فى حال قعودهم ولم يرجفوا بالناس ولم يثبطوهم وهم محسنون فى حالهم هذا، ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقال سفيان الثورى عن عبد العزيز بن رفيع عن أبى ثمامة رضى الله عنه قال: قال الحواريون يا روح الله أخبرنا عن الناصح لله؟ قال الذى يؤثر حق الله على حق الناس، وإذا حدث له أمران أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة، بدأ بالذى للآخرة ثم تفرغ للذى للدنيا.

وقال الأوزاعى: خرج الناس للاستسقاء فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال، يا معشر من حضر ألستم مقرين بالإساءة؟ قالوا اللهم نعم، فقال اللهم إنا نسمعك تقول: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ﴾ اللهم وقد أقررنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا، ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا، وقال قتادة نزلت هذه الآية فى عائذ بن عمرو المزنى، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عبيد الله الرازى، حدثنا ابن جابر عن ابن فروة عن عبدالرحمن بن أبى ليلى عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ فكنت أكتب براءة، فإنى لواضع القلم على أذنى إذ أمرنا بالقتال،

فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف بى يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ إلى آخر الآية، وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزنى فقالوا: يارسول الله احملنا فقال لهم: «و الله لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا ولهم بكاء وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدوا نفقة ولا محملاً. فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم فى كتابه فقال ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ إلى قوله ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ نزلت فى بنى مقرن من مزينة، وقال محمد بن كعب: كانوا سبعة نفر من بنى عمرو بن عوف سالم بن عوف، ومن بنى واقف هرمى بن عمرو، ومن بني مازن بن النجار: عبد الرحمن بن كعب، ويكنى أبا ليلى، ومن بني المعلى: سلمان بن صخر، ومن بني حارثة: عبد الرحمن بن يزيد أبو عبلة وهو الذي تصدق بعرضه فقبله الله منه، ومن بنى سلمة عمرو بن غنمة وعبد الله بن عمرو المزنى.

وقال محمد بن إسحاق فى سياق غزوة تبوك: ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاءون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، من بنى عمرو بن عوف: سالم بن عمير وعلبة بن زيد أخو بنى حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بنى مازن بن النجار، وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بنى سلمة وعبد الله بن المغفل المزنى، وبعض الناس يقول بل هو عبد الله بن عمرو المزنى، وهرمى بن عبد الله أخو بنى واقف وعرباض بن سارية الفزارى، فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة فقال ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن الأودى، حدثنا وكيع عن الربيع عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة أقواما ما أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديًا ولا نلتم من عدو نيلا إلا وقد شركوكم فى الأجر» ثم قرأ ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية، وأصل هذا الحديث فى الصحيحين [1] من حديث أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواما ما قطعتم واديًا ولا سرتم سيرًا إلا وهم معكم» قالوا وهم بالمدينة؟ قال: «نعم حبسهم العذر».

وقال الإمام أحمد [2]: حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة رجالا ما قطعتم واديًا ولا سلكتم طريقًا إلا شركوكم فى الأجر، حبسهم المرض» ورواه مسلم وابن ماجه [3] من طرق عن الأعمش به ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون فى القعود وهم أغنياء، وأنبهم فى رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف فى الرحال ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) البخاري (٢٨٣٩)، ولم يروه مسلم من حديث أنس، وإنما رواه من حديث جابر (١٩١١).
(٢) صحيح: المسند (١٣٧٩٦) (٣) مسلم (١٩١١)، وابن ماجه (٢٧٦٥).

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أى لن نصدقكم ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أى قد أعلمنا الله أحوالكم ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أى سيظهر أعمالكم للناس فى الدنيا ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى فيخبركم بأعمالكم خيرها وشرها ويجزيكم عليها، ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتذرين ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ فلا تؤنبوهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ احتقارًا لهم ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أى خبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ فى آخرتهم ﴿جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى من الآثام والخطايا، وأخبر أنهم وإن رضوا عنهم بحلفهم لهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أى الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها للإفساد، ويقال فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

أخبر تعالى أن فى الأعراب كفارًا ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد ﴿وَأَجْدَرُ﴾، أى أحرى ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ كما قال الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابى إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند، فقال الأعرابى: والله إن حديثك ليعجبنى، وإن يدك لتريبنى. فقال زيد: ما يريبك من يدى إنها الشمال؟ فقال الأعرابى: والله ما أدرى اليمين يقطعون أو الشمال؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ وقال الإمام أحمد [1]: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا سفيان عن أبى موسى عن وهب بن منبه عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن» ورواه أبو داود والترمذى والنسائى [2] من طرق عن سفيان الثورى به، وقال الترمذى حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث

---

(١) صحيح: المسند (٣٣٥٢).

(٢) صحيح: أبو داود (٢٨٥٩)، والترمذي (٢٢٥٦)، والنسائي (٤٣٠٩).

الثورى، ولما كانت الغلظة والجفاء فى أهل البوادى لم يبعث الله منهم رسولاً، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾[يوسف: ١٠٩] ولما أهدى ذلك الأعرابى تلك الهدية لرسول الله ﷺ فرد عليه أضعافها حتى رضى، قال: «لقد هممت أن لا أقبل هدية إلا من قرشى أو ثقفى أو أنصارى أو دوسي»[(١)]؛ لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة والطائف والمدينة واليمن، فهم ألطف أخلاقًا من الأعراب لما فى طباع الأعراب من الجفاء.

(حديث الأعرابى فى تقبيل الولد) قال مسلم[(٢)]: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وأبو كريب قالا: ثنا أبو أسامة وابن نمير عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا نعم، قالوا لكنا والله ما نقبل، فقال رسول الله ﷺ: «وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة» وقال ابن نمير: «من قلبك الرحمة». وقوله ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ أى عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته، وأخبر تعالى أن منهم ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ أى فى سبيل الله ﴿مَغۡرَمٗا﴾ أى غرامة وخسارة ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ أى ينتظر بكم الحوادث والآفات ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ أى هى منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ أى سميع لدعاء عباده عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون فى سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾ أى ألا إن ذلك حاصل لهم ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم، قال الشعبى: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية، وقال أبو موسى الأشعرى وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة، هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ، وقال محمد بن كعب القرظى: مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ فأخذ عمر بيده فقال: من أقرأك هذا؟ فقال: أبى بن كعب، فقال: لا تفارقنى حتى أذهب بك إليه، فلما جاءه قال عمر أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم. قال: وسمعتها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أبى تصديق هذه الآية فى أول سورة الجمعة ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[الجمعة: ٣] وفى سورة الحشر ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ الآية[الحشر: ١٠]، وفى الأنفال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) **صحيح**: أبو داود (٣٥٣٧)، والترمذي (٣٩٤٥)، والنسائي (٣٧٥٩) من حديث أبي هريرة به.
(٢) مسلم (٢٣١٧).

مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ﴾ الآية [الأنفال: ٧٥]، ورواه ابن جرير، قال: وذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرؤها برفع الأنصار عطفًا على ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فياويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم. عياذًا بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله ويعادون من يعادي الله وهم متبعون لا مبتدعون ويقتدون ولا يبتدون، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

يخبر تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقين، وفي أهل المدينة أيضًا منافقون ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي مرنوا واستمروا عليه، ومنه يقال شيطان مريد، ومارد ويقال تمرد فلان على الله أي عتا وتجبر، وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] لأن هذا من باب التوسم فهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقًا وإن كان يراه صباحًا ومساء، وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد في مسنده [1] حيث قال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن النعمان بن سالم عن رجل عن جبير بن مطعم رضي الله عنه، قال قلت: يا رسول الله إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة فقال: «لتأتينكم أجوركم ولو كنتم في جحر ثعلب» وأصغى إليَّ رسول الله ﷺ برأسه فقال «إن في أصحابي منافقين» ومعناه أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذي سمعه جبير بن مطعم، وتقدم في تفسير قوله ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ [التوبة: ٧٤] أنه ﷺ أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقًا، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم، والله أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عمر البيروتي من طريق هشام بن عمار: حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا ابن جابر، حدثني شيخ ببيروت يكنى أبا عمر، أظنه حدثني عن أبي الدرداء أن رجلا يقال له حرملة أتى النبي ﷺ فقال: الإيمان ههنا وأشار بيده إلى لسانه، والنفاق ههنا وأشار بيده إلى قلبه، ولم يذكر الله إلا قليلًا، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل له لسانًا ذاكرًا، وقلبًا شاكرًا، وارزقه حبي وحب من يحبني، وصير أمره إلى خير» فقال: يا رسول الله إنه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت

(١) ضعيف: المسند (١٦٣٢٣). في إسناده رجل لم يسم وانظر مجمع الزوائد (٥/ ٢٥٢).

رأسًا فيهم أفلا آتيك بهم؟ قال: «من أتانا استغفرنا له، ومن أصر على دينه فالله أولى به، ولا تخرقن على أحد سترًا»[١]، قال وكذا رواه أبو أحمد الحاكم عن أبى بكر الباغندى عن هشام بن عمار به، وقال عبد الرزاق[٢]: أخبرنا معمر عن قتادة فى هذه الآية أنه قال: ما بال أقوام يتكلفون علم الناس، فلان فى الجنة وفلان فى النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال لا أدرى لعمرى أنت بنفسك أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئًا ما تكلفه الأنبياء قبلك، قال نبى الله نوح عليه السلام ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الشعراء: ١١٢] وقال نبى الله شعيب عليه السلام ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[هود: ٨٦] وقال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ وقال السدى[٣] عن أبى مالك عن ابن عباس فى هذه الآية قال: قام رسول الله ﷺ خطيبًا يوم الجمعة فقال: «اخرج يا فلان فإنك منافق، واخرج يا فلان فإنك منافق» فأخرج من المسجد ناسًا منهم فضحهم، فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة وظن أن الناس قد انصرفوا، واختبئوا هم من عمر ظنوا أنه قد علم بأمرهم، فجاء عمر فدخل المسجد فإذا الناس لم يصلوا، فقال له رجل من المسلمين: أبشر يا عمر قد فضح الله المنافقين اليوم، قال ابن عباس: فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد، والعذاب الثانى عذاب القبر، وكذا قال الثورى عن السدى عن أبى مالك نحو هذا.

وقال مجاهد فى قوله ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ يعنى القتل والسبى، وقال فى رواية بالجوع وعذاب القبر، ثم يردون إلى عذاب عظيم، وقال ابن جريج عذاب فى الدنيا وعذاب فى القبر ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ النار، وقال الحسن البصرى: عذاب فى الدنيا وعذاب فى القبر، وقال عبد الرحمن بن زيد: أما عذاب فى الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قول الله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الدُّنْيَا﴾[التوبة: ٨٥] فهذه المصائب لهم عذاب وهى للمؤمنين أجر، وعذاب فى الآخرة فى النار ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ قال النار، وقال محمد بن إسحاق ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ قال: هو فيما بلغنى ما هم فيه من أمر الإسلام وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة، ثم عذابهم فى القبور إذا صاروا إليها، ثم العذاب العظيم الذى يردون إليه عذاب الآخرة والخلد فيه، وقال سعيد عن قتادة فى قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ عذاب الدنيا وعذاب القبر ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ وذكر لنا أن نبى الله ﷺ أسر إلى حذيفة باثنى عشر رجلا من المنافقين، فقال: «ستة منهم تكفيهم الدبيلة سراج من نار جهنم يأخذ فى كتف أحدهم حتى يفضى إلى صدره، وستة يموتون موتًا»[٤]، وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا مات رجل ممن يرى أنه منهم، نظر إلى حذيفة فإن صلى عليه وإلا تركه، وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة أنشدك الله أمنهم أنا؟ قال لا ولا أومن منها أحدًا بعدك.

---

(١) ضعيف: قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٤٠٢): رواه الطبراني وفيه راو لم يسم، وبقية رجاله ثقات.
(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٥٣).
(٣) تفسير الطبري (١١/ ١٠).
(٤) ضعيف: تفسير الطبري (١١/ ١١).

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

لما بيّن تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكذيبًا وشكًّا، شرع فى بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلا وميلا إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أى أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال أخر صالحة خلطوا هذه بتلك فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه، وهذه الآية وإن كانت نزلت فى أناس معينين إلا أنها عامة فى كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوثين، وقد قال مجاهد: إنها نزلت فى أبى لبابة لما قال لبنى قريظة: إنه الذبح وأشار بيده إلى حلقه، وقال ابن عباس ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ نزلت فى أبى لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، فقال بعضهم: أبو لبابة وخمسة معه، وقيل وسبعة معه، وقيل وتسعة معه، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ فلما أنزل الله هذه الآية ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم، وقال البخارى [1]: حدثنا مؤمل بن هشام، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عوف، حدثنا أبو رجاء، حدثنا سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ لنا «أتانى الليلة آتيان فابتعثانى فانتهيا بى إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر كأقبح ما أنت راء، قالا لهم اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة، قالا لى هذه جنة عدن وهذا منزلك، قالا: أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا فتجاوز الله عنهم» هكذا رواه البخارى مختصرًا فى تفسير هذه الآية.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير فى ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا، ولهذا اعتقد بعض مانعى الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصًّا لرسول الله ﷺ، ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد، الصديق أبو بكر وسائر الصحابة وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق: والله لو منعونى عناقًا [2] - وفى رواية عقالا - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه، وقوله

(١) البخاري (٤٦٧٤)، (٧٠٤٧).
(٢) البخاري (١٤٠٠)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أى ادع لهم واستغفر لهم كما رواه مسلم [١] فى صحيحه عن عبد الله بن أبى أوفى قال: كان النبى ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم فأتاه أبى بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبى أوفى» وفى الحديث الآخر أن امرأة قالت: يا رسول الله صل عليَّ وعلى زوجى، فقال «صلى الله عليك وعلى زوجك» [٢] وقوله: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ قرأ بعضهم صلواتك على الجمع وآخرون قرءوا إن صلاتك على الإفراد ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ قال ابن عباس: رحمة لهم، وقال قتادة وقار، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أى لدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾ أى بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له، قال الإمام أحمد [٣]: حدثنا وكيع، حدثنا أبو العميس عن أبى بكر بن عمرو بن عتبة عن ابن الحذيفة عن أبيه أن النبى ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته وأصابت ولده وولد ولده، ثم رواه [٤] عن أبى نعيم عن مسعر عن أبى بكر بن عمرو بن عتبة عن ابن لحذيفة، قال مسعر: وقد ذكره مرة عن حذيفة أن صلاة النبى ﷺ لتدرك الرجل وولده وولد ولده.

وقوله ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحصها ويمحقها، وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال، فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أحد، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ كما قال الثورى ووكيع كلاهما عن عباد بن منصور عن القاسم بن محمد، أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتكون مثل أحد» [٥] وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ وقوله: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] وقال الثورى والأعمش، كلاهما عن عبد الله بن السائب عن عبد الله بن أبى قتادة قال: قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، إن الصدقة تقع فى يد الله عز وجل قبل أن تقع فى يد السائل، ثم قرأ هذه الآية ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ وقد روى ابن عساكر فى تاريخه فى ترجمة عبد الله بن الشاعر السكسكى الدمشقى وأصله حمصى، وكان أحد الفقهاء، روى عن معاوية وغيره، وحكى عنه حوشب بن سيف السكسكى الحمصى قال: غزا الناس فى زمان معاوية رضى الله عنه وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فغل رجل من المسلمين مائة دينار رومية. فلما قفل الجيش ندم وأتى الأمير فأبى أن يقبلها منه وقال: قد تفرق الناس ولن أقبلها منك حتى تأتى الله بها يوم القيامة، فجعل الرجل يستقرئ الصحابة فيقولون له مثل ذلك، فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه فأبى عليه، فخرج من عنده وهو يبكى ويسترجع، فمر بعبد الله بن الشاعر السكسكى فقال له ما يبكيك؟ فذكر له أمره، فقال له: أو مطيعني أنت؟ فقال: نعم، فقال اذهب إلى معاوية فقل له اقبل منى خمسَك فادفع إليه عشرين دينارًا وانظر الثمانين الباقية فتصدق بها عن ذلك الجيش، فإن الله يقبل التوبة عن عباده وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم، ففعل الرجل، فقال معاوية

---

(١) البخاري (١٤٩٨)، ومسلم (١٠٧٨).
(٢) صحيح: أبو داود (١٥٣٣).
(٣) المسند (٢٢٧٦٦).
(٤) المسند (٢٢٨٨٥).
(٥) صحيح: الترمذي (٦٦٢)، وأصل الحديث في الصحيحين: البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤).

رضى الله عنه: لأن أكون أفتيته بها أحب إلى من كل شيء أملكه، أحسن الرجل.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

قال مجاهد: هذا وعيد يعنى من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين. وهذا كائن لا محالة يوم القيامة كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] وقال: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠] وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس فى الدنيا، كما قال الإمام أحمد [١]: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائنًا ما كان» وقد ورد: أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر فى البرزخ، كما قال أبو داود الطيالسى [٢]: حدثنا الصلت بن دينار عن الحسن عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم فى قبورهم، فإن كان خيرًا استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك».

وقال الإمام أحمد [٣]: أنبأنا عبد الرزاق عن سفيان عمن سمع أنسًا يقول: قال النبى ﷺ: إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات فإن كان خيرًا استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا».

وقال البخارى [٤] قالت عائشة رضى الله عنها: إذا أعجبك حسن عمل امرىء مسلم فقل ﴿ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وقد ورد فى الحديث شبيه بهذا.

قال الإمام أحمد [٥]: حدثنا يزيد، حدثنا حميد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له، فإن العامل يعمل زمانًا من عمره أو برهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه لدخل الجنة ثم يتحول فيعمل عملا سيئًا، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيئ لو مات عليه دخل النار ثم يتحول فيعمل عملا صالحًا، وإذا أراد الله بعبده خيرًا استعمله قبل موته» قالوا: يا رسول الله وكيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه» تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا أى عن التوبة، وهم

---

(١) المسند (١٠٨٤٦)، قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٥): رواه أحمد وأبو يعلى، وإسنادهما حسن.
(٢) ضعيف: مسند الطيالسي (١/ ٢٤٨)، برقم (١٧٩٤)، في سنده الصلت بن دينار، وهو متروك.
(٣) ضعيف: المسند (١٢٢٧٢)، في إسناده رجل مبهم.
(٤) البخاري (١٣/ ٥٠٣ فتح).
(٥) صحيح: المسند (١١٨٠٤)، قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢١١): رواه أحمد وأبو يعلى واليزار والطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح.

مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك فى جملة من قعد كسلا وميلا إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال لا شكًا ونفاقًا، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسوارى كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء وأرجىء هؤلاء عن التوبة، حتى نزلت الآية الآتية وهى قوله ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧]، ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ الآية [التوبة: ١١٨]، كما سيأتى بيانه فى حديث كعب بن مالك.

وقوله ﴿إِنَّمَا يُعَذِّبُهُمْ وَإِنَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أى هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم فى أفعاله وأقواله لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾

سبب نزول هذه الآيات الكريمات، أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر فى الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة فى الجاهلية وله شرف فى الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجرًا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها، وخرج فارًا إلى كفار مكة من مشركى قريش، فألبهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع فى إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم أبو عامر فى أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومى بعدى شر، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدًا طريدًا فنالته هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول ﷺ فى ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبى ﷺ فوعده ومناه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصدًا له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم

ليحتجوا بصلاته عليه السلام فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة فى الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» فلما قفل عليه السلام راجعًا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين فى مسجدهم مسجد قباء الذى أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة، كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾، هم أناس من الأنصار بنوا مسجدًا فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدًا واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم وأخرج محمدًا وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبى ﷺ فقالوا له: قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلى فيه وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله عز وجل ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ إلى قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩] وكذا روى عن سعيد بن جبير ومجاهد وعروة بن الزبير وقتادة وغير واحد من العلماء.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن الزهرى ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبى بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم، قالوا: أقبل رسول الله ﷺ يعنى من تبوك حتى نزل بذى أوان - بلد بينه وبين المدينة - ساعة من نهار، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدًا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه، فقال: «إنى على جناح سفر وحال شغل» أو كما قال رسول الله ﷺ «ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا لكم فيه» فلما نزل بذى أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بنى سالم بن عوف، ومعن بن عدى أو أخاه عامر بن عدى أخا بلعجلان فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه» فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف، وهم وهط مالك بن الدخشم.

فقال مالك لمعن: أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى، فدخل أهله فأخذ سعفًا من النخل فأشعل فيه نارًا ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ إلى آخر القصة. وكان الذين بنوه اثنى عشر رجلاً: خدام بن خالد من بنى عبد بن زيد أحد بنى عمرو بن عوف، ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب من بنى عبيد هو إلى بنى أمية بن زيد، ومعتب بن قشير من بنى ضبيعة بن زيد، وأبو حبيبة بن الأزعر من بنى ضبيعة من زيد، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من بنى عمرو بن عوف، وجارية بن عامر وابناه مجمع بن جارية وزيد بن جارية ونبتل الحارث وهم من بنى ضبيعة ويخرج، وهم من بنى ضبيعة، وبجاد بن عثمان وهو من بنى ضبيعة، ووديعة بن ثابت، وهو إلى بنى أمية رهط أبى لبابة بن عبد المنذر. وقوله ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ أى الذين بنوه ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أى ما أردنا ببنيانه إلا خيرًا ورفقًا بالناس، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أى فيما قصدوا وفيما نووا، وإنما بنوه ضرارًا لمسجد قباء وكفرًا بالله وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل، وهو أبو عامر الفاسق الذى يقال له الراهب لعنه الله، وقوله ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ نهى

من الله لرسول ﷺ والأمة تبع له فى ذلك عن أن يقوم فيه أى يصلى فيه أبدًا. ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء الذى أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهى طاعة الله وطاعة رسوله وجمعًا لكلمة المؤمنين ومعقلا وموئلا للإسلام وأهله، ولهذا قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ والسياق إنما هو فى معرض مسجد قباء، ولهذا جاء فى الحديث الصحيح [١] أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة فى مسجد قباء كعمرة»، وفى الصحيح [٢] أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكبًا وماشيًا، وفى الحديث أن رسول الله ﷺ لما بناه وأسسه أول قدومه ونزوله على بنى عمرو بن عوف كان جبريل هو الذى عين له جهة القبلة، فالله أعلم.

وقال أبو داود [٣]: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام عن يونس بن الحارث عن إبراهيم بن أبى ميمونة عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «نزلت هذه الآية فى أهل قباء ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ - قال - كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية». ورواه الترمذى وابن ماجه [٤] من حديث يونس بن الحارث وهو ضعيف، وقال الترمذى غريب من هذا الوجه، وقال الطبرانى [٥]: حدثنا الحسن بن على المعمرى، حدثنا محمد بن حميد الرازى، حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة فقال: «ما هذا الطهور الذى أثنى الله عليكم؟» فقال: يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا وغسل فرجه أو قال مقعدته، فقال النبى ﷺ «هو هذا».

وقال الإمام أحمد [٦]: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا أبو أويس، حدثنا شرحبيل عن عويم بن ساعدة الأنصارى، أنه حدثه أن النبى ﷺ أتاهم فى مسجد قباء فقال: «إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فى قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذى تطهرون به؟» فقالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئًا، إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه [٧]، وقال هشيم عن عبد الحميد المدنى عن إبراهيم بن المعلى الأنصارى: أن رسول الله ﷺ قال لعويم بن ساعدة: «ما هذا الذى أثنى الله عليكم ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾»؟ الآية، قالوا: يا رسول الله إنا نغسل الأدبار بالماء،

وقال ابن جرير [٨]: حدثنى محمد بن عمارة الأسدى، حدثنا محمد بن سعد ثنا إبراهيم بن محمد عن شرحبيل بن سعد قال: سمعت خزيمة بن ثابت يقول: نزلت هذه الآية ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ قال كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد بن حنبل [٩]: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك يعنى ابن مغول،

---

(١) صحيح: الترمذي (٣٢٤)، ابن ماجه (١٤١١)، من حديث أسيد بن ظهير الأنصاري به.
(٢) البخاري (١١٩٢)، (١١٩٣)، ومسلم، (١٣٩٩)، من حديث ابن عمر.
(٣) صحيح: أبو داود (٤٤).
(٤) صحيح: الترمذي (٣١٠٠)، وابن ماجه (٣٥٧).
(٥) المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٦٧)، برقم (١١٠٦٥)، في إسناده محمد بن حميد ضعيف.
(٦) المسند (١٥٠٥٩).
(٧) صحيح: ابن خزيمة (١/ ٤٥) برقم (٨٣).
(٨) تفسير الطبري (١١/ ٣٠).
(٩) المسند (٢٣٣٢١).

سمعت سيارًا أبا الحكم عن شهر بن حوشب عن محمد بن عبد الله بن سلام قال: لما قدم رسول الله ﷺ يعني قباء، فقال «إن الله عز وجل قد أثنى عليكم في الطهور خيرًا أفلا تخبروني؟» يعني قوله ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ فقالوا يا رسول الله إنا نجده مكتوبًا علينا في التوراة الاستنجاء بالماء.

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير، وقال عطية العوفي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والشعبي والحسن البصري ونقله البغوي عن سعيد بن جبير وقتادة، وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي هو في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى، وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده [١]: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الله بن عامر الأسلمي عن عمران بن أبي أنس، عن سهل بن سعد عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال: «المسجد الذي أسس على التقوى مسجدي هذا» تفرد به أحمد.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد [٢]: حدثنا وكيع، حدثنا ربيعة بن عثمان التيمي عن عمران بن أبي أنس عن سهل بن سعد الساعدي قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أسس على التقوى فقال أحدهما هو مسجد الرسول ﷺ، وقال الآخر هو مسجد قباء، فأتيا النبي ﷺ فسألاه فقال: «هو مسجدي هذا» تفرد به أحمد أيضًا.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد [٣]: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ليث عن عمران بن أبي أنس عن سعيد بن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال أحدهما هو مسجد قباء، وقال الآخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ «هو مسجدي هذا» تفرد به أحمد.

(طريق أخرى) قال الإمام أحمد [٤]: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا ليث حدثني عمران بن أبي أنس عن ابن أبي سعيد عن أبيه أنه قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل هو مسجد قباء، وقال الآخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ «هو مسجدي» وكذا رواه الترمذي والنسائي [٥] عن قتيبة عن الليث وصححه الترمذي ورواه مسلم [٦] كما سيأتي.

(طريق أخرى) قال الإمام أحمد [٧]: حدثنا يحيى عن أنيس بن أبي يحيى، حدثني أبي قال: سمعت أبا سعيد الخدري قال: اختلف رجلان رجل من بني خدرة ورجل من بني عمرو بن عوف، في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخدري هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال العمري هو مسجد

---

(١) صحيح: المسند (٢٠٦٠٤).
(٢) المسند (٢٢٢٩٩).
(٣) المسند (١١٤٣٦).
(٤) المسند (١٠٦٦٢).
(٥) صحيح: الترمذي (٣٠٩٩)، النسائي (٦٩٧).
(٦) مسلم برقم (١٣٩٨).
(٧) المسند (١٠٧٩٤).

قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك فقال: «هو هذا المسجد» لمسجد رسول الله ﷺ، وقال: «في ذلك خير كثير» يعنى مسجد قباء.

(طريق أخرى) قال أبو جعفر بن جرير [١]: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا حميد الخراط المدنى سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن أبى سعيد فقلت كيف سمعت أباك يقول فى المسجد الذى أسس على التقوى؟ فقال: قال أبي: أتيت رسول الله ﷺ فدخلت عليه فى بيت لبعض نسائه فقلت: يا رسول الله أين المسجد الذى أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفًا من حصباء فضرب به الأرض ثم قال: «هو مسجدكم هذا» ثم قال: فقلت له هكذا سمعت أباك يذكره، رواه مسلم [٢] منفردًا به عن محمد بن حاتم عن يحيى بن سعيد به، ورواه عن أبى بكر بن أبى شيبة وغيره عن حاتم بن إسماعيل عن حميد الخراط به، وقد قال بأنه مسجد النبى ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مروى عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب، واختاره ابن جرير، وقوله: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ دليل على استحباب الصلاة فى المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء والتنزه عن ملابسة القاذورات.

وقد قال الإمام أحمد [٣]: حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عبد الملك بن عمير، سمعت شبيبًا أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ الروم فأوهم فلما انصرف قال: «إنه يلبس علينا القرآن، إن أقواما منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء» ثم رواه من طريقين آخرين عن عبد الملك بن عمير عن شبيب أبى روح من ذى الكلاع، أنه صلى مع النبى ﷺ فذكره، فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام فى العبادة ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها. وقال أبو العالية فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ إن الطهور بالماء لحسن ولكنهم المطهرون من الذنوب. وقال الأعمش التوبة من الذنوب والتطهر من الشرك، وقد ورد فى الحديث المروى من طرق فى السنن وغيرها أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء: «قد أثنى الله عليكم فى الطهور فماذا تصنعون؟» فقالوا نستنجى بالماء، وقد قال الحافظ أبو بكر البزار [٤]: حدثنا عبد الله بن شبيب، حدثنا أحمد بن محمد بن عبد العزيز قال: وجدته فى كتاب أبى عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية فى أهل قباء ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ فسألهم رسول الله ﷺ، فقالوا: إنا نتبع الحجارة الماء رواه البزار، ثم قال: تفرد به محمد بن عبد العزيز عن الزهرى ولم يرو عنه سوى ابنه، قلت: وإنما ذكرته بهذا اللفظ؛ لأنه مشهور بين الفقهاء ولم يعرفه كثير من المحدثين المتأخرين أو

---

(١) صحيح: تفسير الطبري (١١/ ٢٧).

(٢) مسلم برقم (١٣٩٨).

(٣) صحيح: المسند (١٥٤٤٧).

(٤) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٢١٢): رواه البزار وفيه محمد بن عبد العزيز بن عمر ضعفه البخاري والنسائي وغيرهما.

كلهم، والله أعلم.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

يقول تعالى لا يستوى من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ومن بنى مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين، وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما بنى هؤلاء بنيانهم على شفا جرف هار، أى طرف حفيرة، منشالة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: لا يصلح عمل المفسدين. قال جابر بن عبد الله: رأيت المسجد الذى بنى ضرارًا يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ.

وقال ابن جريج: ذكر لنا أن رجالا حفروا فوجدوا الدخان يخرج منه، وكذا قال قتادة، وقال خلف بن ياسين الكوفى: رأيت مسجد المنافقين الذى ذكره الله تعالى فى القرآن وفيه جحر يخرج منه الدخان وهو اليوم مزبلة، رواه ابن جرير رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: شكًا ونفاقًا، بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورثهم نفاقًا فى قلوبهم كما أشرب عابدو العجل حبه.

وقوله: ﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أى بموتهم، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم والسدى وحبيب بن أبى ثابت والضحاك وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد من علماء السلف، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى: بأعمال خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ فى مجازاتهم عنها من خير وشر.

ربع الحزب ٢١

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها فى سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبادة المطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصرى وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم. وقال شمر بن عطية: ما من مسلم إلا ولله عز وجل فى عنقه بيعة، وفى بها أو مات عليها ثم تلا هذه الآية. ولهذا يقال من حمل فى سبيل الله بايع الله أى قبل هذا العقد ووفى به. وقال محمد بن كعب القرظى وغيره، قال عبد الله بن رواحة - رضى الله عنه - لرسول الله ﷺ يعنى ليلة العقبة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال «أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا. وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال «الجنة» قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل [1]، فنزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ الآية، وقوله: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أى: سواء

(١) مرسل: تفسير الطبري (١١/ ٣٥).

قتلوا أو قتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة.

ولهذا جاء في الصحيحين [١] «وتكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وتصديق برسلي بأن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة» وقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ تأكيد لهذا الوعد وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ فإنه لا يخلف الميعاد. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] ولهذا قال ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم والنعيم المقيم.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة ﴿التَّائِبُونَ﴾ من الذنوب كلها التاركون للفواحش ﴿الْعَابِدُونَ﴾ أي: القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها وهي الأقوال والأفعال، فمن أخص الأقوال الحمد، فلهذا قال: ﴿الْحَامِدُونَ﴾ ومن أفضل الأعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة ههنا، ولهذا قال: ﴿السَّائِحُونَ﴾ كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى: ﴿سَائِحَاتٍ﴾ أي: صائمات، وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علما وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق؛ ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

(بيان أن المراد بالسياحة الصيام) قال سفيان الثوري: عن عاصم عن زِرّ عن عبد الله بن مسعود قال ﴿السَّائِحُونَ﴾ الصائمون وكذا روى عن سعيد بن جبير والعوفي عن ابن عباس، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. كل ما ذكر الله في القرآن السياحة هم الصائمون، وكذا قال الضحاك رحمه الله.

وقال ابن جرير [٢]: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إبراهيم بن يزيد عن الوليد بن عبد الله عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سياحة هذه الأمة الصيام، وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وأبو عبد الرحمن السلمي والضحاك بن مزاحم وسفيان بن عيينة وغيرهم، أن المراد بالسائحين الصائمون، وقال الحسن البصري: ﴿السَّائِحُونَ﴾ الصائمون شهر رمضان، وقال أبو

---

(١) البخاري (٣١٢٣)، ومسلم (١٨٧٦) من حديث أبي هريرة.

(٢) تفسير الطبري (١١/ ٣٩).

عمرو العبدى: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الذين يديمون الصيام من المؤمنين، وقد ورد فى حديث مرفوع نحو هذا، فقال ابن جرير [١]: حدثنى محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا حكيم بن حزام، حدثنا سليمان عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «السائحون هم الصائمون» وهذا الموقوف أصح، وقال أيضًا حدثنى يونس عن ابن وهب عن عمر بن الحارث عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير، قال: سئل النبى ﷺ عن السائحين، فقال: «هم الصائمون» وهذا مرسل جيد فهذا أصح الأقوال وأشهرها.

وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد وهو ما روى أبو داود [٢] فى سننه من حديث أبى أمامة أن رجلا قال: يا رسول الله ائذن لى فى السياحة، فقال النبى ﷺ: «سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله» وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة، أخبرنى عمارة بن غزية أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أبدلنا الله بذلك الجهاد فى سبيل الله والتكبير على كل شرف» وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المهاجرون، رواهما ابن أبى حاتم، وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة فى الأرض والتفرد فى شواهق الجبال والكهوف والبرارى، فإن هذا ليس بمشروع إلا فى أيام الفتن والزلازل فى الدين، كما ثبت فى صحيح البخارى [٣] عن أبى سعيد الخدرى، أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن» وقال العوفى وعلى بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ قال القائمون بطاعة الله، وكذا قال الحسن البصرى وعنه رواية ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ قال: لفرائض الله، وفى رواية القائمون على أمر الله.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾

قال الإمام أحمد [٤]: حدثنا عبدالرزاق، حدثنا معمر عن الزهرى عن ابن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية، فقال «أى عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ قال: فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به أنا على ملة عبد المطلب، فقال النبى ﷺ «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ قال ونزلت فيه ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أخرجاه [٥].

---

(١) ضعيف: تفسير الطبري (١١/ ٣٧) في إسناده حكيم بن حزام، وهو متروك.
(٢) حسن: أبو داود (٢٤٨٦).
(٣) البخاري برقم (١٩).
(٤) صحيح: المسند (٢٣١٦٢).
(٥) البخاري برقم (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

وقال الإمام أحمد [١]: حدثنا يحيى بن آدم، أخبرنا سفيان عن أبى إسحاق عن أبى الخليل عن على رضى الله عنه قال: سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنبى ﷺ فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ الآية، قال لما مات فلا أدرى، قاله سفيان أو قاله إسرائيل أو هو فى الحديث «لما مات».

(قُلْتُ): هذا ثابت عن مجاهد أنه قال: لما مات. وقال الإمام أحمد [٢]: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا زهير، حدثنا زبيد بن الحارث اليامى عن محارب بن دثار عن ابن بريدة عن أبيه قال كنا مع النبى ﷺ ونحن فى سفر، فنزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان، فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال: يا رسول الله مالك؟ قال: «إنى سألت ربى عز وجل فى الاستغفار لأمى فلم يأذن لى فدمعت عيناى رحمة لها من النار، وإنى كنت نهيتكم عن ثلاث: نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها لتذكركم زيارتها خيرًا. ونهيتكم عن لحوم الأضاحى بعد ثلاث فكلوا وأمسكوا ما شئتم، ونهيتكم عن الأشربة فى الأوعية فاشربوا فى أى وعاء شئتم، ولا تشربوا مسكرًا».

وروى ابن جرير [٣] من حديث علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن النبى ﷺ لما قدم مكة، أتى رسم قبر فجلس إليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبرًا، فقلنا يا رسول الله إنا رأينا ما صنعت. قال: «إنى استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لي» فما رئى باكيًا أكثر من يومئذ. وقال ابن أبى حاتم فى تفسيره: حدثنا أبى، حدثنا خالد بن خداش، حدثنا عبد الله بن وهب عن ابن جريج عن أيوب بن هانىء عن مسروق عن عبد الله بن مسعود، قال: خرج رسول الله ﷺ يوما إلى المقابر فاتبعناه فجاء حتى جلس إلى قبر منها، فناجاه طويلا ثم بكى فبكينا لبكائه، ثم قام فقام إليه عمر بن الخطاب فدعاه ثم دعانا، فقال «ما أبكاكم؟» فقلنا بكينا لبكائك. قال: «إن القبر الذى جلست عنده قبر آمنة، وإنى استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لي» ثم أورده من وجه آخر، ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريبًا منه، وفيه: «وإنى استأذنت ربى فى الدعاء لها فلم يأذن لى وأنزل على: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ الآية، فأخذنى ما يأخذ الولد للوالد، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنها تذكر الآخرة» [٤].

(حديث آخر فى معناه): قال الطبرانى [٥]: حدثنا محمد بن على المروزى، حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن منيب، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان، عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك واعتمر، فلما هبط من ثنية عسفان أمر أصحابه أن استندوا إلى

---

(١) المسند (٧٧٣).
(٢) صحيح: المسند (٢٢٤٩٤).
(٣) صحيح: تفسير الطبري (١١/ ٤٢).
(٤) صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٣٦٦)، برقم (٣٢٩٢)، من طريق عبد الله بن وهب بنحوه، وقال: صحيح على شرطهما.
(٥) ضعيف: المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٣٧٤) برقم (١٢٠٤٩).

العقبة حتى أرجع إليكم، فذهب فنزل على قبر أمه فناجى ربه طويلاً، ثم إنه بكى فاشتد بكاؤه وبكى هؤلاء لبكائه، وقالوا ما بكى نبى الله بهذا المكان إلا وقد أحدث الله فى أمته شيئًا لا تطيقه، فلما بكى هؤلاء قام فرجع إليهم فقال: «ما يبكيكم؟» قالوا: يا نبى الله بكينا لبكائك، فقلنا لعله أحدث فى أمتك شىء لا تطيقه، قال: «لا، وقد كان بعضه، ولكن نزلت على قبر أمى فسألت الله أن يأذن لى فى شفاعتها يوم القيامة فأبى الله أن يأذن لى فرحمتها وهى أمى فبكيت، ثم جاءنى جبريل فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ فتبرأ أنت من أمك كما تبرأ إبراهيم من أبيه، فرحمتها وهى أمى ودعوت ربى أن يرفع عن أمتى أربعًا فرفع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين، ودعوت ربى أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض وأن لا يلبسهم شيعًا وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع الله عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض وأبى الله أن يرفع عنهم القتل والهرج» وإنما عدل إلى قبر أمه؛ لأنها كانت مدفونة تحت كداء وكانت عسفان لهم، وهذا حديث غريب وسياق عجيب، وأغرب منه وأشد نكارة ما رواه الخطيب البغدادى فى كتاب «السابق واللاحق» بسند مجهول عن عائشة فى حديث فيه قصة، أن الله أحيا أمه فآمنت ثم عادت»، وكذلك ما رواه السهيلى فى الروض بسند فيه جماعة مجهولون: إن الله أحيا له أباه وأمه فآمنا به.

وقد قال الحافظ ابن دحية: هذا حديث موضوع يرده القرآن والإجماع قال تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

وقال القرطبي: إن مقتضى هذا الحديث . . . وردٌّ على ابن دحية فى هذا الاستدلال، بما حاصله أن هذه حياة جديدة كما رجعت الشمس بعد غيبوبتها، فصلى عليٌّ العصر، قال الطحاوى: وهو حديث ثابت يعنى حديث الشمس، قال القرطبى: فليس إحياؤهما يمتنع عقلا ولا شرعًا، قال: وقد سمعت أن الله أحيا عمه أبا طالب فآمن به.

(قُلْتُ) وهذا كله متوقف على صحة الحديث فإذا صح فلا مانع منه، والله أعلم.

وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، أن النبى ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فنهاه الله عز وجل عن ذلك، فقال «إن إبراهيم خليل الله ﷺ قد استغفر لأبيه» فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ الآية، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية، كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية، فأمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية، وقال قتادة فى الآية: ذكر لنا أن رجالا من أصحاب النبى ﷺ: قالوا: يا نبى الله إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك العانى ويوفى بالذمم أفلا نستغفر لهم؟ قال: فقال النبى ﷺ: «بلى والله إنى لأستغفر لأبى كما استغفر إبراهيم لأبيه»[1] فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ حتى بلغ قوله ﴿لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ ثم عذر الله تعالى إبراهيم

(١) ضعيف: تفسير الطبري (١١/ ٤٣).

عليه السلام، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، قال: وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قد أوحى إليَّ كلمات فدخلن في أذني وقرن في قلبي: أمرت أن لا أستغفر لمن مات مشركًا، ومن أعطى فضل ماله فهو خير له، ومن أمسك فهو شر له، ولا يلوم الله على كفاف».

وقال الثوري عن الشيباني عن سعيد بن جبير قال: مات رجل يهودي وله ابن مسلم فلم يخرج معه، فذكر ذلك لابن عباس فقال: فكان ينبغي له أن يمشي معه ويدفنه ويدعو له بالصلاح ما دام حيًّا، فإذا مات وكله إلى شأنه، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ لم يدع. ويشهد له بالصحة ما رواه أبو داود [1] وغيره عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لما مات أبو طالب قلت يا رسول الله: إن عمك الشيخ الضال قد مات، قال: «اذهب فواره ولا تحدثن شيئًا حتى تأتيني» وذكر تمام الحديث، يروى أن رسول الله ﷺ لما مرت به جنازة عمه أبي طالب قال: «وصلتك رحم يا عم» وقال عطاء بن أبي رباح: ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة، ولو كانت حبشية حبلى من الزنا، لأني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين، يقول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية.

وروى ابن جرير، عن ابن وكيع عن أبيه عن عصمة بن زامل عن أبيه، قال: سمعت أبا هريرة يقول: رحم الله رجلا استغفر لأبي هريرة ولأمه، قلت ولأبيه. قال لا. قال إن أبي مات مشركًا، وقوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، وفي رواية لما مات تبين له أنه عدو لله، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم رحمهم الله، وقال عبيد بن عمير وسعيد بن جبير: إنه يتبرأ منه في يوم القيامة حتى يلقى أباه، وعلى وجه أبيه الغبرة والقترة، فيقول: يا إبراهيم إني كنت أعصيك وإني اليوم لا أعصيك، فيقول: أي رب ألم تعدني أن لا تخزني يوم يبعثون؟ فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟، فيقال انظر إلى ما وراءك فإذا هو بذيخ متلطخ، أي قد مسخ ضبعًا ثم يسحب بقوائمه ويلقى في النار. وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ قال سفيان الثوري وغير واحد: عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود، أنه قال الأواه الدعاء، وكذا روى من غير وجه: عن ابن مسعود.

وقال ابن جرير [2]: حدثني المثنى، حدثنا الحجاج بن منهال، حدثني عبد الحميد بن بهرام، حدثنا شهر بن حوشب عن عبد الله بن شداد بن الهاد، قال: بينما رسول الله ﷺ جالس قال رجل: يا رسول الله ما الأواه؟ قال: «المتضرع» قال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ ورواه ابن أبي حاتم: من حديث ابن المبارك عن عبد الحميد بن بهرام به، ولفظه قال الأواه المتضرع الدعاء. **وقال الثوري عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن أبي العبيدين، أنه سأل ابن مسعود عن الأواه فقال هو الرحيم، وبه** قال مجاهد وأبو ميسرة عمرو بن شرحبيل والحسن البصري وقتادة: أي الرحيم أي بعباد الله.

وقال ابن المبارك عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس، قال: الأواه الموقن بلسان الحبشة، وكذا

---

(١) **صحيح**: أبو داود (٣٢١٤)، والنسائي (٢٠٠٦).

(٢) تفسير الطبري (١١/ ٥١).

قال العوفى عن ابن عباس أنه الموقن، وكذا قال مجاهد والضحاك، وقال على بن أبى طلحة ومجاهد عن ابن عباس: الأواه المؤمن، زاد على بن أبى طلحة عنه: هو المؤمن التواب، وقال العوفى عنه هو المؤمن بلسان الحبشة. وكذا قال ابن جريج هو المؤمن بلسان الحبشة.

وقال الإمام أحمد [١]: حدثنا موسى، حدثنا ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن على بن رباح عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له: ذو البجادين «إنه أواه» وذلك أنه رجل كثير الذكر لله فى القرآن ورفع صوته بالدعاء، ورواه ابن جرير. وقال سعيد بن جبير والشعبى: الأواه المسبح، وقال ابن وهب عن معاوية بن صالح عن أبى الزاهرية عن جبير بن نفير عن أبى الدرداء - رضى الله عنه قال: لا يحافظ على سبحة الضحى إلا الأواه، وقال شفى بن مانع عن أبى أيوب، الأواه الذى إذا ذكر خطاياه استغفر منها، وعن مجاهد الأواه الحفيظ الوجل يذنب الذنب سرًا ثم يتوب منه سرًا، ذكر ذلك كله ابن أبى حاتم، رحمه الله.

وقال ابن جرير [٢]: حدثنا ابن وكيع، حدثنا المحاربى عن حجاج عن الحكم عن الحسن بن مسلم بن يناف، أن رجلا كان يكثر ذكر الله ويسبح، فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال: «إنه أواه».

وقال أيضًا [٣]: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن هانىء، حدثنا المنهال بن خليفة عن حجاج بن أرطاة عن عطاء عن ابن عباس، أن النبى ﷺ دفن ميتًا فقال: «رحمك الله إن كنت لأواها» يعنى تلاء للقرآن، وقال شعبة عن أبى يونس الباهلى، قال سمعت رجلا بمكة وكان أصله روميًا وكان قاصًا يحدث عن أبى ذر، قال: كان رجل يطوف بالبيت الحرام ويقول فى دعائه: أوه أوه فذكر ذلك للنبى ﷺ، فقال: «إنه أواه» قال: فخرجت ذات ليلة فإذا رسول الله ﷺ يدفن ذلك الرجل ليلا ومعه المصباح، هذا حديث غريب رواه ابن جرير. وروى عن كعب الأحبار أنه قال: سمعت ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ قال: كان إذا ذكر النار قال: أوه من النار، وقال ابن جريج عن ابن عباس ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ قال: فقيه. قال الإمام أبو جعفر بن جرير: وأولى الأقوال قول من قال إنه الدعاء وهو المناسب للسياق، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها إياه، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليما عمن ظلمه وآناله مكروهًا، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له فى قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾[مريم: ٤٦-٤٧] فحلم عنه مع أذاه له ودعا له واستغفر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

---

(١) حسن: المسند (١٧٠٠٠).

تنبيه: في المسند قال: حدثنا يونس حدثنا ابن لهيعة فليعلم.

قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٧٢): رواه أحمد والطبراني وإسنادهما حسن.

(٢) تفسير الطبري (١١/ ٥٠).

(٣) تفسير الطبري (١١/ ٥٠).

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

يقول تعالى مخبرًا عن نفسه الكريمة وحكمه العادل: إنه لا يضل قوما إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ الآية [فصلت: ١٧]، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ الآية، قال بيان الله عز وجل للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه لهم في وطاعته معصيته عامة، فافعلوا أو ذروا.

وقال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهة ذلك بالنهي عنه ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، وأما من لم يؤمر ولم ينه فغير كائن مطيعًا أو عاصيًا فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ قال ابن جرير: هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض ولا يرهبوا من أعدائه، فإنه لا ولي لهم من دون الله ولا نصير لهم سواه، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن أبي دلامة البغدادي، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا سعيد عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا ما نسمع من شيء، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيط السماء وما تلام أن تئط وما فيها من موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم»[1] وقال كعب الأحبار: ما من موضع خرم إبرة من الأرض إلا وملك موكل بها يرفع علم ذلك إلى الله، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى مخه مسيرة مائة عام.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُم بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مجدبة وحر شديد وعسر من الزاد والماء، قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشتركان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ثم يمصها هذا ثم يشرب

(١) صحيح: رواه محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (١/٢٥٨)، برقم (٢٥٠)، والطبراني في الكبير (٣/٢٠١)، برقم (٣١٢٢)، من طريق عبد الوهاب بن عطاء بنحوه.

عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم.

وقال ابن جرير [١]: حدثنى يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبى هلال عن عتبة بن أبى عتبة عن نافع بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عباس، أنه قيل لعمر بن الخطاب فى شأن العسرة، فقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك فى قيظ شديد، فنزلنا منزلا فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله عز وجل قد عودك فى الدعاء خيرًا فادع لنا، فقال «تحب ذلك؟» قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء فأهطلت ثم سكبت، فملئوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر.

وقال ابن جرير: فى قوله ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أى من النفقة والظهر والزاد والماء ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أى عن الحق، ويشك فى دين رسول الله ﷺ ويرتاب بالذى نالهم من المشقة والشدة فى سفرهم وغزوه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

قال الإمام أحمد [٢]: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن أخى الزهرى محمد بن عبد الله، عن عمه محمد بن مسلم الزهرى أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، أن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمى، قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك، غير أنى كنت تخلفت فى غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لى بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها وأشهر، وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزاة، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا، واستقبل عدوًا كثيرًا فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه الذى يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب: فقل رجل

(١) صحيح: تفسير الطبري (١١/ ٥٥).
(٢) صحيح: المسند (١٣٥٦٢).

يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل وأنا إليها أصعر، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، وطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازى شيئا، فأقول لنفسى أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى شمّر بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئًا وقلت: الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئًا من جهازى، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئًا، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فأدركهم وليت أنى فعلت، ثم لم يقدر ذلك لى فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم يحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مغموصًا عليه فى النفاق أو رجلا ممن عذره الله عز وجل، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك» فقال رجل من بنى سلمة: حبسه يا رسول الله برداه والنظر فى عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئسما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا. فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك، حضرنى بثى وطفقت أتفكر الكذب، وأقول بماذا أخرج من سخطه غدًا؟ أستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا، زاح عنى الباطل وعرفت أنى لم أنج منه بشىء أبدًا، فأجمعت صدقه فأصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لى: «تعال» فجئت أمشى حتى جلست بين يديه، فقال لى: «ما خلفك ألم تكن قد اشتريت ظهرًا؟» فقلت: يا رسول الله إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلا ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك علىَّ، ولئن حدثتك بصدق تجد على فيه إنى لأرجو أقرب عقبى ذلك من الله عز وجل والله ما كان لى عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر منى حين تخلفت عنك، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك» فقمت وبادرني رجال من بنى سلمة واتبعونى فقالوا لى: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا ولقد عجزت إلا أن تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، قال: فو الله ما زالوا يؤنبونى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى، قال ثم قلت لهم هل لقى معى هذا أحد؟ قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت فمن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامرى وهلال بن أمية الواقفى، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرًا لى فيهما أسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لى قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لى فى نفسى الأرضُ فما هى بالأرض التى كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباى فاستكانا

وقعدا فى بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمنى أحد، وآتى رسول الله ﷺ وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول فى نفسى أحرك شفتيه برد السلام على أم لا؟ ثم أصلى قريبًا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى، فإذا التفتُّ نحوه أعرض عنّى، حتّى إذا طال علّى ذلك من هجر المسلمين مشيت حتّى تسوّرت حائط أبى قتادة وهوابن عمى وأحب الناس إلى، فسلمت عليه فو الله ما رد على السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أنى أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، قال: فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فقال الله: ورسوله أعلم.

قال ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذا أنا بنبطى من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك، قال فطفق الناس يشيرون له إلىَّ حتى جاء فدفع إلى كتابًا من ملك غسان وكنت كاتبًا، فإذا فيه: أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك وإن الله لم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك، قال: فقلت حين قرأتها وهذا أيضًا من البلاء، قال: فتيممت به التنور فسجرته بها حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتينى فقال إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال فقلت أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: بل اعتزلها ولا تقربها، قال وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك، قال فقلت لامرأتى الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ما يشاء، قال فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلالا شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟، قال: «لا ولكن لا يقربنّك» قالت وإنه والله ما به من حركة إلى شيء، والله ما زال يبكى من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا، قال فقال لى بعض أهلى لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال فقلت والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدرى ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب.

قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، قال: ثم صليت الفجر الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى منا قد ضاقت على نفسى وضاقت على الأرض بما رحبت، سمعت صارخًا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، قال: فخررت ساجدًا وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبى مبشرون، وركض إلىَّ رجل فرسًا وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى فنزعت له ثوبى فكسوتهما إياه ببشارته لي، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ يتلقانى الناس فوجًا فوجًا يهنئوني بتوبة الله، يقولون ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس فى المسجد حوله الناس، فقام إلىَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى، والله ما قام إلىَّ رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور، «أبشر بخير يوم مر عليك منذ

ولدتك أمك» قال: قلت أمن عندك رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا بل من عند الله» قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» قال: فقلت: فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر وقلت يا رسول الله: إنما نجانى الله بالصدق وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت، قال: فو الله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله من الصدق فى الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى الله تعالى، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله عز وجل فيما بقى.

(قال): وأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. قال كعب: فو الله ما أنعم الله علىَّ من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله ﷺ يومئذ، أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه حين كذبوه، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد، فقال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦] قال: وكنا أيها خُلِّفْنَا الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه؛ فلذلك قال عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ وليس تخليفه إيانا وارجاؤه أمرنا الذى ذكر مما خلفنا بتخليفنا عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحبا الصحيح البخارى ومسلم [1]، من حديث الزهرى بنحوه، فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها، وكذا روى عن غير واحد من السلف فى تفسيرها، كما رواه الأعمش عن أبى سفيان عن جابر بن عبد الله فى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ قال: هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكلهم من الأنصار، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغير واحد وكلهم قال: مرارة بن ربيعة، وفي رواية عن سعيد بن جبير: ربيع بن مرارة، وقال الحسن البصري: ربيع بن مرارة أو مرارة بن ربيع وكذا فى مسلم: ربيعة فى بعض نسخه، وفى بعضها مرارة بن الربيع. وفى رواية عن الضحاك مرارة بن الربيع كما وقع فى الصحيحين وهو الصواب، وقوله فسموا رجلين شهدا بدرًا قيل إنه خطأ من الزهرى، فإنه لا يعرف شهود واحد من هؤلاء الثلاثة بدرًا، والله أعلم.

ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحوًا من

(١) البخاري (٢٧٥٧)، مسلم (٢٧٦٩).

خمسين ليلة بأيامها، وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، أى مع سعتها فسدت عليهم المسالك والمذاهب فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله واستكانوا لأمر الله وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ فى تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيرًا لهم وتوبة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أى: اصدقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجًا من أموركم ومخرجًا، وقد قال الإمام أحمد: (١) حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق عن عبد الله هو ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا» أخرجاه فى الصحيحين (٢)، وقال شعبة عن عمرو بن مرة: سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال: الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، اقرءوا إن شئتم: «يَا أَيُّهَا الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا من الصَّادقينَ» هكذا قرأها، ثم قال فهل تجدون لأحد فيه رخصة؟، وعن عبد الله بن عمرو فى قوله ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال مع محمد ﷺ وأصحابه، وقال الضحاك مع أبى بكر وعمر وأصحابهما، وقال الحسن البصرى: إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد فى الدنيا والكف عن أهل الملة.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة، فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر لأنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو العطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وهو التعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ وهى المجاعة ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾. أى ينزلون منزلا يرهب عدوهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾ منه ظفرًا وغلبة عليه إلا كتب الله لهم بهذه الأعمال التى ليست داخلة تحت قدرهم وإنما هى ناشئة عن أفعالهم أعمالا صالحة وثوابًا جزيلا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

(١) صحيح: المسند (٣٦٣١).
(٢) البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

يقول تعالى ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ هؤلاء الغزاة فى سبيل الله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أى: قليلا ولا كثيرًا ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أى: فى السير إلى الأعداء ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ولم يقل ههنا به؛ لأن هذه أفعال صادرة عنهم، ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق فى هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة، كما قال عبد الله بن الإمام أحمد: (١) حدثنا أبو موسى العنزي، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنى سكن بن المغيرة، حدثنى الوليد بن أبى هشام، عن فرقد أبى طلحة، عن عبد الرحمن بن خباب السلمى، قال: خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة فقال عثمان بن عفان - رضى الله عنه -: علىَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها، قال ثم حث، فقال عثمان: علىَّ مائة بعير أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حث، فقال عثمان بن عفان: علىَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده هكذا يحركها، وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب «ما على عثمان ما عمل بعد هذا» وقال عبد الله أيضًا: (٢) حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ضمرة، حدثنا عبد الله بن شوذب، عن عبد الله بن القاسم عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة عن عبد الرحمن بن سمرة، قال: جاء عثمان رضى الله عنه إلى النبى ﷺ بألف دينار فى ثوبه حين جهز النبى ﷺ جيش العسرة، قال: فصبها فى حجر النبى ﷺ فرأيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقلبها بيده ويقول: «ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم» يرددها مرارًا، وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ الآية. ما ازداد قوم من أهليهم فى سبيل الله بعدًا إلا ازدادوا قربًا من الله.

نصف الحزب ٢١

﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفير الأحياء مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، فإنه قد ذهبت طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ وقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ١٢٠]، قالوا فنسخ ذلك بهذه الآية. وقد يقال إنها بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحى عليه وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران فى هذا النفير المعين، وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحى إما للتفقه وإما للجهاد، فإنه فرض كفاية على الأحياء، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعًا ويتركوا النبى ﷺ وحده ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعنى عصبة

(١) صحيح: المسند (١٦٢٥٥).
(٢) حسن لغيره: المسند (٢٠١٠٧).

يعنى السرايا ولا يسيروا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون مع النبى ﷺ، وقالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنًا وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ وقال مجاهد: نزلت هذه الآية فى أناس من أصحاب محمد ﷺ، خرجوا فى البوادى فأصابوا من الناس معروفًا، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا؟ فوجدوا فى أنفسهم من ذلك تحرجًا وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبى ﷺ، فقال الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يبتغون الخير ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ وليسمعوا ما فى الناس وما أنزل الله بعدهم ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ الناس كلهم إذا رجعوا إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ وقال قتادة فى هذه الآية: هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش أمرهم الله أن لا يعروا نبيه ﷺ، وتقيم طائفة مع رسول الله ﷺ تتفقه فى الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم.

وقال الضحاك: كان رسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه إلا أهل العذر، وكان إذا قام فاسترت السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه، فكان الرجل إذا أسترى فنزل بعده قرآن وتلاه نبى الله ﷺ على أصحابه القاعدين معه، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ: إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآنًا فيقرءونهم ويفقهونهم فى الدين، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً﴾ يقول إذا أقام رسول الله ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يعنى بذلك أنه لا ينبغى للمسلمين أن ينفروا جميعًا ونبى الله ﷺ قاعد، ولكن إذا قعد نبى الله فسرت السرايا وقعد معه عُظْم الناس. وقال على بن أبى طلحة أيضًا عن ابن عباس، قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً﴾ إنها ليست فى الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين، أجدبت بلادهم وكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها، حتى يحلوا بالمدينة من الجهد ويعتلوا بالإسلام وهم كاذبون، فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ وأجهدوهم، فأنزل الله تعالى يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين، فردهم رسول الله ﷺ إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية: كان ينطلق من كل حى من العرب عصابة فيأتون النبى ﷺ ويسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون فى دينهم، ويقولون لنبي الله ﷺ: ما تأمرنا أن نفعله؟ وأخبرنا بما نأمر به عشائرنا إذا قدمنا عليهم، قال فيأمرهم نبى الله ﷺ بطاعة الله وطاعة رسوله ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة، وكانوا إذا أتوا قومهم نادوا: إن من أسلم فهو منا وينذرونهم ربهم، حتى إن الرجل ليفارق أباه، وأمه، وكان النبى ﷺ يخبرهم وينذرهم قومهم، فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة، وقال عكرمة لما نزلت هذه الآية: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[التوبة: ٣٩] و﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾[التوبة: ١٢٠]، قال المنافقون: هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا

معه، وقد كان ناس من أصحاب النبى ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ الآية، ونزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦] وقال الحسن البصرى ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾. قال: ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولا الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين فى جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب فى دين الله أفواجًا، شرع فى قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجدب البلاد وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام، ثم اشتغل فى السنة العاشرة بحجته حجة الوداع، ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يومًا، فاختاره الله لما عنده وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - ، وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل فثبته الله تعالى به، فوطد القواعد وثبت الدعائم، ورد شارد الدين وهو راغم، ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطعام، وبين الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حمله، ثم شرع فى تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد. وأنفق كنوزهما فى سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الإله، وكان تمام الأمر على يدى وصيه من بعده، وولى عهده الفاروق الأواب، شهيد المحراب، أبى حفص عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين واستولى على الممالك شرقًا وغربًا. وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعدًا وقربًا. ففرقها على الوجه الشرعى. والسبيل المرضى. ثم لما مات شهيدًا وقد عاش حميدًا. أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه شهيد الدار. فكسى الإسلام رياسة حلة سابغة. وامتدت فى سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة. فظهر الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها. وعلت كلمة الله وظهر دينه. وبلغت الأمة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها. فكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امتثالا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أى وليجد الكفار منكم غلظة عليهم فى قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذى يكون رفيقًا لأخيه المؤمن غليظًا على عدوه الكافر، كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وقوله تعالى:

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[التوبة: ٧٣، التحريم: ٩] وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا الضحوك القتال» يعني أنه ضحوك في وجه وليه قتال لهامة عدوه، وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم. ولم تزل الفتوحات كثيرة ولم تزل الأعداء في سفال وخسار، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء في أطراف البلاد وتقدموا إليها، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلدانًا كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام ولله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله وتوكل على الله فتح الله عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبه وبقدر ما فيه من ولاية الله؛ والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم إنه جواد كريم.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فمن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ أي يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه السورة إيمانًا قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيدوينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء. بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد. وقد بسط الكلام على هذه المسألة في أول شرح البخاري رحمه الله ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي زادتهم شكًا إلى شكهم وريبًا إلى ريبهم كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[فصلت: ٤٤] وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدى القلوب يكون سببًا لضلالهم ودمارهم كما أن سيئ المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالا ونقصًا.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾

يقول تعالى: أو لا يرى هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ أي يختبرون ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم، قال مجاهد يختبرون بالسنة والجوع وقال قتادة بالغزو في السنة مرة أو مرتين،

وقال شريك عن جابر هو الجعفى عن أبى الضحى عن حذيفة فى قوله: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: كنا نسمع فى كل عام كذبة أو كذبتين فيضل بها فئام من الناس كثير رواه ابن جرير وفى الحديث عن أنس: لا يزداد الأمر إلا شدة [(١)] ولا يزداد الناس إلا شحًا وما من عام إلا والذى بعده شر منه، [(٢)] سمعته من نبيكم ﷺ وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ هذا أيضًا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أى تلفتوا ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ أى تولوا عن الحق وانصرفوا عنه وهذا حالهم فى الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه كقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١].

وقوله تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٦-٣٧] أى: ما لهؤلاء القوم يتفللون عنك يمينًا وشمالا هروبًا من الحق وذهابًا إلى الباطل.

وقوله: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥] أى لا يفهمون عن الله خطابه ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه بل هم فى شغل عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

يقول تعالى ممتنًا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم أى من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أى منكم وبلغتكم كما قال جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه للنجاشى والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولا منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته وذكر الحديث وقال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية وقال ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح» وقد وصل هذا من وجه آخر كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزى فى كتابه الفاصل بين الراوى والواعى: [(٣)] حدثنا أبو أحمد يوسف بن هارون بن زياد حدثنا ابن أبى عمر حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال: أشهد على أبى لحدثنى عن أبيه عن جده عن على قال: قال رسول الله ﷺ «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى لم يمسنى من سفاح الجاهلية شىء» وقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أى يعز عليه الشىء الذى يعنت أمته

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٣٩).
(٢) البخاري (٧٠٦٨) بنحوه.
(٣) حسن: المحدث الفاصل (١/ ٤٧٠)، والطبراني في المعجم الأوسط (٥/ ٨٠) برقم (٤٧٢٨).

ويشق عليها ولهذا جاء فى الحديث المروى من طرق عنه أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة [١]» وفى الصحيح [٢]: «إن هذا الدين يسر وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه» ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أى على هدايتكم ووصول النفع الدنيوى والأخروى إليكم، وقال الطبرانى [٣] حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى حدثنا سفيان بن عيينة عن فِطْر عن أبى الطفيل عن أبى ذر قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه فى الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علما قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما بقى شىء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم» وقال الإمام أحمد: [٤] حدثنا أبو قطن حدثنا المسعودى عن الحسن بن سعد عن عبدة النهري عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع، ألا وإنى آخذ بحجزكم أن تهافتوا فى النار كتهافت الفراش أو الذباب».

وقال الإمام أحمد [٥]: حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان فيما يرى النائم فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه. فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل فى حلة حبرة فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضًا معشبة وحياضًا رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم قال: فانطلق بهم فأوردهم رياضًا معشبة وحياضًا رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم: ألم ألفكم على تلك الحال فجعلتم لى إن وردت بكم رياضًا معشبة وحياضًا رواء أن تتبعوني؟ فقالوا بلى فقال: فإن بين أيديكم رياضًا هى أعشب من هذه وحياضًا هى أروى من هذه فاتبعونى فقالت طائفة صدق والله لنتبعه، وقالت طائفة قد رضينا بهذا نقيم عليه، وقال البزار [٦]: حدثنا سلمة بن شبيب وأحمد بن منصور قالا حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان حدثنا أبى عن عكرمة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن أعرابيًا جاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه فى شىء قال عكرمة: أراه قال فى دم فأعطاه رسول الله ﷺ شيئًا ثم قال: «أحسنت إليك؟» قال الأعرابى: لا ولا أجملت فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه فأشار رسول الله ﷺ إليهم أن كفوا فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله دعا الأعرابى إلى البيت فقال له: «إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك فقلت ما قلت» فزاده رسول الله ﷺ شيئًا وقال: «أحسنت إليك؟» فقال الأعرابى نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا. قال النبى ﷺ: «إنك جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت. وفى أنفس أصحابى عليك من ذلك شىء فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب عن صدورهم» فقال: نعم فلما جاء الأعرابى قال رسول الله ﷺ:

---

(١) تقدم تخريجه. (٢) البخاري برقم (٣٩).

(٣) صحيح: المعجم الكبير (٢/ ١٥٥)، برقم (١٦٤٧)، انظر مجمع الزوائد (٧/ ٢٦٥).

(٤) صحيح: المسند (٤٠١٧).

تنبيه: قال في المسند: حدثنا أبو كامل، وفي الرواية الأخرى أيضًا من المسند قال: حدثنا وكيع، فليعلم.

(٥) المسند (٢٣٩٨).

(٦) ضعيف جدًا: البزار (٢٤٧٦ كشف) في سنده إبراهيم بن الحكم بن أبان، وهو متروك وانظر: مجمع الزوائد (١٥١٩).

«إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال، وإنا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضى، كذلك يا أعرابي؟» فقال الأعرابى: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا. فقال النبى ﷺ: «إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورًا. فقال لهم صاحب الناقة خلوا بينى وبين ناقتى فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها فتوجه إليها وأخذ لها من قتام الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها وإنى لو أطعتكم حيث قال ما قال لدخل النار» ثم قال البزار: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه.

(قُلتُ) وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان والله أعلم، وقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٥-٢١٧] وهكذا أمره تعالى وهذه الآية الكريمة وهى قوله تعالى ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أى: تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى: الله كافيَّ لا إله إلا هو عليه توكلت كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أى: هو مالك كل شىء وخالقه؛ لأنه رب العرش العظيم الذى هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شىء وقدره نافذ فى كل شىء وهو على كل شىء وكيل.

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: [(١)]حدثنا محمد بن أبى بكر حدثنا بشر بن عمر حدثنا شعبة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما عن أبى بن كعب قال: آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة، وقال عبد الله بن الإمام أحمد: [(٢)]حدثنا روح بن عبد المؤمن حدثنا عمر بن شقيق حدثنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب رضى الله عنهم أنهم جمعوا القرآن فى مصاحف فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه فكان رجال يكتبون ويملى عليهم أبى بن كعب فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ فظنوا أن هذا آخر ما نزل من القرآن فقال لهم أبى بن كعب إن رسول الله ﷺ أقرأنى بعدها آيتين ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾: قال هذا آخر ما نزل من القرآن فختم بما فتح به بالله الذى لا إله إلا هو وهو قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ وهذا غريب أيضًا.

وقال الإمام أحمد: [(٣)]حدثنا على بن بحر حدثنا محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير - رضى الله عنه - قال: أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى عمر بن الخطاب فقال: من معك على هذا؟ قال: لا أدرى والله إنى لأشهد لسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) المسند (٢٠٦١٠). (٢) المسند (٢٠٧٢٠).

(٣) ضعيف: المسند (١٧١٧).

ووعيتها وحفظتها فقال عمر: وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ثم قال: لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا سورة من القرآن فضعوها فيها، فوضعوها فى آخر براءة، وقد تقدم أن عمر بن الخطاب هو الذى أشار على أبى بكر الصديق - رضى الله عنهما - بجمع القرآن فأمر زيد بن ثابت فجمعه وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك، وفى الصحيح أن زيدًا قال: فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت أو أبى خزيمة، وقد قدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عن رسول الله ﷺ كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها والله أعلم، وقد روى أبو داود [1] عن يزيد بن محمد عن عبد الرزاق بن عمر - وقال: كان من ثقات المسلمين من المتعبدين عن مدرك بن سعد قال يزيد شيخ ثقة عن يونس بن ميسرة عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال: من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم. سبع مرات إلا كفاه الله ما يهمه. وقد رواه ابن عساكر فى ترجمة عبد الرزاق بن عمر، هذا من رواية أبى زرعة الدمشقى عنه عن أبى سعد مدرك بن أبى سعد الفزارى عن يونس بن ميسرة بن حلبس عن أم الدرداء سمعت أبا الدرداء يقول: ما من عبد يقول: حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات صادقًا بها كان أو كاذبًا إلا كفاه الله ما أهمه. وهذه زيادة غريبة، ثم رواه فى ترجمة عبد الرزاق أبى محمد عن أحمد بن عبد الله بن عبد الرزاق عن جده عبد الرزاق بن عمر بسنده فرفعه فذكر مثله بالزيادة وهذا منكر، والله أعلم.

آخر سورة براءة والحمد لله وحده.

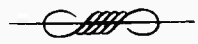

(١) حسن: أبو داود (٥٠٨١) قال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٢٥٥): رواه أبو داود هكذا موقوفًا، وقد يقال إن مثل هذا لا يقال من قبل الرأى والاجتهاد فسبيله سبيل المرفوع.